عباس محمود العقاد

أفيون الشعوب

المذاهب الهدامة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ - شارع محمد فريد - القاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

اسرة الاستاذ/ محمد حسنين كرام

الاسكندرية

عباس محمود العقاد

أفيون الشعوب

المذاهب الهدامة

مقدمة

اذا كان لابد من كلمة موجزة هنا فلتكن كلمة عابرة لبيان الصواب من تسمية هذا الكتاب ·

ان نفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى بضعة أسابيع لهى خير مسوغ لتسمية المذاهب الهدامة باسم أفيون الشعوب ، وان هذا الأفيون النفسانى شبيه بأخيه الأفيون المادى ، فيما يصيب صرعاه ، وفيما يصيب مروجيه ··

ولقد كان أناس من أولئك الصرعى ، أو أولئك المروجين ، يملأون آذانهم بضوضاء أفواههم ، فيخيل اليهم أن الدنيا لا يسمع فيها مقال غير ما يقولون ، وان كل كلام غير ذلك المقال ، مصيره الى الاهمال ··

وكانوا يقولون حين ظهر هذا الكتاب ان القراء سيجدونه عما قريب على أرصفة الطريق ، حيث تباع نفايات الكتب والمطبوعات كلما أعرض عنها قراء الشعب المظلوم ··

وان فى كلامهم هذا لشيئا من رائحة الأفيون :

فيه رائحة الأفيون لأن الكتب انما تعرض على الأرصفة ليقبل عليها الشعب القارئ كلما عز عليه الوصول اليها فى غير هذه السوق ··

ورائحة الأفيون ــ الردئ ــ فاشية منه ، لأنه أوهام

وأحلام ، لا هي من وحي اليقظة ولا من وحي المنام ٠٠ !

كتاب يحلمون حلمهم « الأفيوني » فيلبدون على الأرصفة مع التفايات ٠٠ فاذا هي أحلام صنف من نفاية الاصناف ٠٠ وينفد الكتاب في بضعة أسابيع ٠٠ !

وسيقبل الشعب عليه في طبعته هـــذه كما أقبل عليه في طبعته تلك ، وسيضيق معرض الرصيف عن نسخة منه بعـد حين ، لأنها قلما تجد لها متسعا هنـــالك بين ما يقذفون به العالم القـارىء من سواد على بيـاض ، يعلم الله من يمليه ومن يزجيه ، ولا يجهل الناس صرعاه ولا مروجيه ٠٠

واننا لنحمد للقوم كل حلم كاذب من جانبهم ، لأنه يقظة صـادقة من جانب الشعب الذى يفترون عليــه ، وما من حكم حسيب أصدق من هذا الحكم الحسيب ، بين غاش وناصح ، أو بين مخطىء ومصيب ٠٠

« عباس محمود العقاد »

أفيون الشعوب

المذاهب الهدامة

يقول كارل ماركس وأتباعه ان الأديان أفيون الشعوب ، وان الناس يقبلون على الدين لأنه يخدرهم ويلهيهم عن شقاء الحياة ·

وهذا القول الهراء عن الدين آخر وصف يمكن ان ينطبق عليه وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه ·

فالشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان · وما من دين الا وهو يوقظ فى نفس المتدين شعورا حاضرا بالمسئولية فى السر والعلانية ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ويوحى الى الفقراء والأغنياء على السواء انهم لن يستحقوا أجر السماء بغير عمل وغير جزاء ·

وشتان هذا وقول القائلين ان الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الأفيون ·

انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جميع نواحيه، لأنه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوى الأقدار والعظماء ·

انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية لأنه يلقى بالمسئوليات كلها على المجتمع ويقول ويعيد للعجزة وذوى الجرائم والآثام انهم ضحاياه المظلومون ، وان التبعة كلها فى عجزهم واجرامهم واقعة عليه ، ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق ألسنتهم بالاتهام على كل ذى شأن ينظرون اليه نظرة الحسد والضغينة ، ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد .

ولو أنك نظرت الى فعل « السكرة » فى المخمور لم تجد لها فى نفسه شهوة تستهويه غير هذا الشعور باسقاط المسئولية وهذا التطاول على أعظم عظيم ، كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الأشياء . وما كان للماركسية من سحر يستهوى السفلة اليه غير هذا السحر الذى يبذلون فيه الدراهم ويجدونه فى الماركسية جمعا بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول وشفاء أدواء الحسد والانتقام .

سكرة رخيصة لا أكثر ولا أقل .

وانهم ليتحدثون عن « المذهب العلمى » أو يتحدثون عن التفسير « العلمى » للتاريخ ويكثرون من ذكر العلم والبحث والاستقراء ثم تنظر فيمن يستهوونهم بهذا الهراء فلا ترى أحدا منهم يحفل بالعلم أو يعنيه أمر المعرفة والاستقراء ، ولكنك واجد فيهم ـ على يقين ـ من يعميهم الحسد عن كل فضيلة وتندفع بهم الغرائز كما تندفع السائمة على غير هداية ، ومن يعملون ولا يفكرون فى عاقبة ما يعملون

ان « الماركسية » اذن لهى الحقيقـــة بما تفتريه من وصف للأديان والمعتقدات ، وانها لأفيون الشعوب بغير مراء ، وكلما بحثت عن سبب صالح لشيوع المسكرات فى بيئة من البيئات فاعلم انه سبب صالح كذلك لشيوع المذاهب الهدامة ولتفسير هـــذه الشهوات التى تلخصها أول الأعراض التى تبـدو على المسكران : اسقاط للتبعة وخلع للحياء ، واستمراء للتطاول والبذاء على كل محسود ، وان لم يكن من الأغنياء

وفى هذه الكلمة الوجيزة ـ وما يلى من الأحاديث المذاعـة فى حينها ـ تنبيه سريع الى هذه الحقيقة البينة

ولكنه تنبيه لمن ؟

لا للمخمور الغارق فى سكرته ، فانه لا يفيق ولا يحب ان يفيق وفى رأسه بقية من خمار

ولكنها تنبيه لمن ينظرون ، لا يكلفهم الا أن يديروا اليـــه الآذان والعيون

العلم والمذاهب الهدامة

من الدعاوى العريضة التي يدعيها أصحاب المذاهب الهدامة انهم يعتمدون على الحقائق العلمية ويتجنبون الأوهام والخيالات التي تعلق بها دعاة الاصلاح الأقدمون ·ومن أجل هذا يسمون الاشتراكيين السابقين لهم بالحالمين ويقولون عنهم انهم خادعون مخدوعون ، وان الاشتراكية الحديثة التي يبشرون بهـــا هي الاشتراكية العلميـــة التي لا تقيم وزنا لغير الواقـــع المقرر بالتجربة والمشاهدة ، ولا تعد الناس شيئا الا أن يكون مضمونا حاصلا أو فى حكم الحاصل بعد زمن قريب

واذا كان أصحاب المذاهب الهدامة مضللين أو مضللين فى كثير من الأمور فالأمر الأول منها هو هذه الصفة العلمية التي يسبغونها على مذهبهم ، وهو مناقض لكل علم ، مخالف لـكل حساب صحيح

مثال ذلك انهم يسمون مذهبهم بالمذهب المادى ويعنون به أنهم يفسرون كل حادث من حوادث التاريخ بالأسباب المادية ، ولـكنهم يخطئون فى تفسير أكبر الحوادث كمـــا يخطئون فى تفسير أصغرها وأهونها ، كلما طبقوا عليهـــا سببا من تلك الأسباب

فانهم يتحدثون مثلا عن عصور الفرسان والنبلاء ، ويعللون زوال هذه العصور بظهور البارود وظهور المدن التجارية ومن يتحكمون فيها من كبار التجار وأصحاب الأموال

قالوا : ان الفرسان كانوا يسودون الولايات لخبرتهم بفنون الحرب وأصول الفروسية واعتصامهم بالقلاع والحصون ، وان سلطانهم قد زال بعد اختراع البارود لأن البارود قد جعل استخدام السلاح هينا سهلا على عامة الناس . وقد جعل الهجوم على القلاع والحصون هينا سهلا كذلك على العامة ومن يقودهم من الأعيان والأغنياء

وقالوا أيضا : ان انتشار المدن التجارية قد حول النفوذ الى أيدى أصحاب الأموال والتجار الذين يعرفونهم باسم البرجوازيين ، ولهذا زالت سيادة الفرسان الاقطاعيين وقامت بعدها سيادة التجار وأصحاب الاموال أو سيادة الطبقة البرجوازية

ولا يخفى أن تفسير الحركة البرجوازية هو أهم المسائل فى الدعوات الهدامة ، لأن ظهور هذه الطبقة عندهم هو الدليل على صدق حرب الطبقات ، وهو المقدمة عندهم لزوال النظام الحاضر الذى يسمونه بنظام رأس المال

فهل صحيح أن البارود والمدن التجارية تفعل هذا الفعل فى تطورات التاريخ ؟

ألم يظهر البارود فى الصين قبل ظهوره فى القارة الأوربية ؟ ألم تظهر المطبعة نفسها فى الصين قبل ظهورها فى الغرب بعدة أجيال ؟ ألم يكن فى الصين سادة يملكون الأقاليم الواسعة من الضياع والبقاع ؟ ألم تكن فى الصين مدن تجارية راجت فيها التجارة من قبل عصر الميلاد ؟ فلماذا لم يحدث فى

القديمين ما حدث في القارة الأوربيـــة ان صح ما يزعمـون عن تفسيراتهم للتـــاريخ ؟ ولماذا صنع البـــارود وصنعت المدن التجارية في الغرب ما لم تصنعه في مملكة ابن السماء ؟

ندع هذا وننظر في نبوءاتهم عن المستقبل وهي في اعتقادهم حق محتوم كالنبـوءات الفلـكية عن اقتران الـــكواكب وعن الكسوف والخسوف

فمن هذه النبوءات عن المستقبل ان البلاد التي تتقدم فيها الصناعة هي البـــلاد التي تسرع الى الدعـــوة الماركسية قبل غيرها ويتعرض فيها نظام رأس المال للتداعي والانهيار

فهل هذا هو الواقع المشاهد كما يدعون ؟

كلا ! بل الواقع المشاهد أن الماركسية ظهرت في البلاد التي تأخرت فيها الصـــناعة ، وأن نسبة المذهب الهـــدامة فيها كنسبتها في التأخر ، على النقيض من تفسيرات الماديين

فالصحيح انه على قدر التأخر في الصناعة يكون الاندفاع الى المذاهب الهدامة ، ولهذا ظهرت في روســـيا ثم في ايطاليا وأسبانيا ثم في البلاد الصناعية الأخرى على درجات تناسب نصيبها من الصناعة الكبرى ، وقد بلغت العصمة من المذاهب الهدامة أشدها في الأمم الصناعية العريقة ، كما يشـــاهد في الولايات المتحدة والجزر البريطانية وبلاد الشمال التي أخذت من الصناعة بنصيب موفور

وتكاد هذه القاعدة أن تطرد في آسيا كما أطـردت في أوربا

وأمريكا ، ومن هنا كانت الصين أقرب الى الشيوعية من اليابان ولم تنجح الشيوعية بين اليابانيين كما نجحت بين الصينيين الذين لم يمارسوا الصناعة الكبرى ولم يمارسوا ما هو دونها من الصناعات

ومن نبوءات هؤلاء القوم الذين يفخرون بالنبواءات العلمية أن العمال والصناع تنقص أجورهم كلما تضخمت المصانع وتضاعف رأس المال ، ولا يزال النقص مستمرا حتى يعز القوت على العامل ولا يبقى عنده شيء يفقده غير السلاسل والقيود ، ويومئذ يطيع من يدعونه الى الثورة العالمية لأنها تعطيه ملك العالم كله ولا تضيع عليه شيئا غير تلك السلاسل والقيود

تلك هي النبوءة العلمية التي لا تحسب عندهم من الخرافات ولا من الأوهام .. أما الواقع العملي الذي لا شك فيه فهو أن الأجور تزداد مع تقدم الصناعة ، وأن العمال يزدادون اعتمادا على الوسائل الدستورية أو البرلمانية في تحسين أحوالهم ويزدادون نفورا من الوسائل التي تعرف بالوسائل المباشرة ، أي وسائل الثورة والانقلاب

ومن الجهل بالحقائق أن يقال ان الثورات التي تحدث في هذا العصر دليل على صدق النبوءات الشيوعية ، وأن العالم يمضي الى الخاتمة التي تنبأ بها كارل ماركس وتلاميذه المؤمنون بما تخيله وادعاه

فالثورات والفتن لم تنقطع في القرن التاسع عشر ، ولم

تنقطع في القرن الثامن عشر ، ولم تنقطع في القرون الوسطى، ولم تنقطع قبل ذلك في عهد الدولة الرومانية ، ولكنها كانت تحدث لأسباب كثيرة تارة لأجل العقيدة وتارة لأجل الوطن وتارة لتبديل حاكم بحاكم أو دولة بدولة . وكل ما تدل عليه أن هناك أسبابا كثيرة لسخط الأمم واندفاعها الى اصلاح الحكومات

ولعل هذا العصر الذى نحن فيه يمتاز بخاصة لم تكن شائعة في العصور الغابرة ، وهى الدعوة المتوالية الى السلام والتحكيم وتوحيد المعاملات والعلاقات : فانها لم تعهد بهذا الاجماع فى زمن قبل الزمن الحاضر ، وان كانت لا تزال فى مبدئها ناقصة مختلة ، ككل عمل انسانى كبير فى حالة الابتداء

والخلاصة مما تقدم أن الاشتراكية العلمية المزعومة ليست من العلم فى شيء ، وليست نبوءاتها ولا مقرراتها بأصدق من بشائر المخرفين والحالمين من أدعياء الاصلاح فى ازمنة الجهالة ، وربما كانت نبوءتها الكبرى هى أكذوبتها الكبرى كما سينجلى بعد حين ، ولعله قد انجلى من اليوم لعيان الكثيرين

فالنبوءة الكبرى فى عرف الماركسيين هى نبوءتهم عن اليوم الذى تزول فيه الطبقات التى تستولى على وسائل الانتاج ، ولا يبقى فيه أحد غير العامل والعمال .

فمن اليوم قد تبين أن وسائل الانتاج تؤل شيئا فشيئا الى أيدي خبراء الصناعة وخبراء الاقتصاد وخبراء الدعوة ، ومن

اليوم قد تبين أن ادارة المعامل وتدبير الثروة لا تؤول الى العامل الصغير بمجرد زوال رأس المال ، بل تستولى على تلك الادارة طبقة من ذوى الاختصاص الفنى لا تستغنى عنها الحكومة ‥ وستكون هى الحكومة المتصرفة فى الانتاج وفى المطالب المختلفة وفى التوزيع والاشراف على طلب الخامات وتصريف المصنوعات ، كما قلنا فى حديث غير هذا الحديث .

وعلى نقيض ما يزعمه الماركسيون ، يأتى الحاضر بتكذيب النبوءات الهدامة واحدة بعد واحدة ، ولا يتقدم الزمن فترة بعد فترة الا انهدم ركن من مذهب هدام ، ولحقت به أركان لا تقوى على الثبات .

* * *

لو كانت المذاهب الهدامة فلسفة مقنعة لما عول أصحابها على الجهلاء الذين لا يفكرون ولا يهتدون الى الحقائق ولو صبروا على التفكير فيها . فان الحكم على حقائق التاريخ فى أطوار الانسانية جميعها ـ مطلب عسير لا يقدر عليه الجهلاء الذين يجندهم الهدامون للتخريب والفتنة العمياء ، ومثل هؤلاء قد انقادوا من قبل لكل ناعق ولم يسألوه قط عن فلسفة ولا برهان مقنع ، وحسبهم من الدعاة أنهم يقودونهم الى الشر والفوضى ، ويفتحون أمامهم مصرفا لما طبعوا عليه من نوازع الجهل والخراب .

وقد يتفق للهدامين أن يستجيب لهم طائفة من المتعلمين أو العلماء ، فمن عرف هذه الطائفة أيقن أنها لاتخلو من أحد اثنين : فالعالم الذى يستجيب لمذاهب الهدم اما أن يكون من زمرة ممسوخة الطبائع مطوية على الحسد والبغضاء ممتلئة

بالغرور الذى يسول لهـا أن تطاوع كل نقمة وتستكثر الخير على كل انســـان • فان لم يكن العالم المستجيب للمــذاهب الهدامة من هذه الزمرة فهو مخدوع فيها يتحول عنها بعـــد العلم بحقائقها والاطلاع على مساوئها ، كما قد تحول عنهـــا كثير من الكتاب والحكماء الذين أقبلوا عليهـــا مخلصين ، ثم أعرضوا عنها مخلصين

* * *

ان الاشتراكية العلمية اذن خرافة لا علم فيها ، وقد يطول شرح هدف الاشتراكية ويطول البحث فى قواعدها ومبادئهـا وفى مواطن الضعف منها ، ولكن العقل الذى يعرف شيئا من العلم والفهم لا يحتاج الى شرح طويل ليعلم أن نظرة القوم الى أطوار الانســـانية نظرة باطلة ، وان حكمهم على المســتقبل القريب أو البعيد حكم مردود

انهم يدعـــون أن زعيمهم كارل ماركس قد فرض عـــلى المستقبل نظاما لن يختلف بعد آلاف السنين ، وأنه قد أجرى حكمه على المجتمعات الانسانية اجراء حاسما دائما لن يقبـل التبديل والتنويع ، وقد تجوز على العقل الآدمى المستقيم كل خرافة من خرافات الأساطير ، قبل أن تجوز عليه خرافة تزعم أن الفرد الواحد يسلط فكره على الدهور المقبلة الى غير نهاية•• فان الغول والعنقاء لأقرب الى العلم من هـــذه الدعوى التى لا علم فيها ولا تقـدم ، والتى يروجها دعائمها مع هـــذا وهم يفخرون بأنهم هم العلميون وهم التقدميون

بارود لم ينفجر
وطباعة لم تطبع

عود الى العلم والمذاهب الهدامة

تواتر القول بأن اختراع المطبعة واختراع البارود قد كانا فاتحة عهد أو نقطة تحول في تاريخ الحضارة الحديثة . وبين المطبعة والبارود مناسبة ، أو مشابهة قريبة ، وهي مشابهة « التعميم » .

فقد أصبح الكتاب ميسورا لكل من يطلبه بعد نشر الطباعة وقد كان قبل ذلك موقوفا على رجال الدين أو على الذين يتفرغون لنسخ الكتب ودرسها ، وكلاهما يلجيء الطالب الى تفرغ وانتظار

وقد أصبح حمل السلاح ميسورا لمئات الألوف وألوف الألوف بعد صنع الرامية البارودية . وقد كان السلاح الفعال حكرا قبل ذلك لفرسان القلاع

ولهذا ارتبطت العلاقة بين المطبعة والبارود وبين الديمقراطية وحرية الشعوب ، وصور المؤرخون هذه العلاقة على صور شتى يصح بعضها ويحيط الخطأ الكثير ببعضها الآخر . وهو الذى نتناوله هنا بالتصحيح

فالخطأ الكبير أن يقال ان المطبعة والبارود هما سبب التحول أو سبب القضاء على دولة الكهانة ودولة الفرسان

والصواب أن يقا لـانهما أداة التحول أو علامة التحـول ، وان الفكرة الانسانية هي السبب الفعال وراء كل أداة .

فالقلعة قد انهدمت في اليوم الذى أنكر فيه الناس سلطانها وطلبوا السلاح الذى يقاومها ويغنى عنها ، ومسألة السـلاح واختراعه بعد ذلك هى مسألة زمن أو مسألة تجويد لصناعة من الصناعات المستحدثة ، كما تحتاج كل صـناعة الى زمن للتجويد

والـكهانة قد انهدمت يوم أنكر الناس علمهـا بكل شيء واطلاعها على كل سر وحاجة الانسـان اليها فى خلاص روحه من الهلاك وخلاص عقله من الجهالة . ومسألة الكتب وانتشارها بعد ذلك هى مسـألة الوسيلة التى ارتسمت غايتها قبـل اختراع آلاتها

* * *

حذار فى هذه القضايا التاريخية من اثنين : أحدهما القائل الذى يحب تسـيير الأقوال وابرام الأحكام ، فهـو يتخير الأعاجيب لتسير ويفضل من الأحكام أسرعها الى الابرام

وثانيها الخليق بأن نحذره هو المفسر المادي للتاريخ ، فانه يرفض كل سبب يرجع الى النفس والوجدان ، حتى اذا عثر على سبب يرجع الى مادة جامدة هلل له وكبر ، وكانت صحة السبب عنده على قدر جموده وخلوه من الفكر والضمير

أما حقيقة الأسـباب التى لا شك فيهـا فهى أن الفكرة

الانسانية هى الأداة وراء كل أداة ، وأن الأدوات والمكنات ما لم تكن وسيلة لفكرة انسانية هى والحجارة المنبوذة بالعراء سواء

* * *

قالوا ان البارود هو الذى هدم القلعة ، وانه هو الذى نقل السلطان من أبطال الحصون الى أبطال المدن التجارية

وهذه حركة قوامها عند المفسرين الماديين للتاريخ هو براميل البارود والنبلاء وتجار المدن ، ولا سيما المدن التى على البحار

هذه هى عناصر الحركة التى نقلت الدنيا من عهد الاقطاع الى عهد « البرجوازية » الى ما وراءه من العهود

وهذه العناصر كلها كانت فى الصين من عشرات القرون ، البارود والنبلاء والمدن التجارية ... فلم تنتقل خطوة واحدة من تلك الخطوات التى حركت الحضارة الأوربية من أطوار القرون الوسطى الى أطوارها فى القرن العشرين

ان بعض المؤرخين يشك فى سبق أهل الصين الى اختراع البارود لأنه يربط اختراعه بالكشف الذى سجله « روجرز باكون » فى معمله عند منتصف القرن الثالث عشر ، ويرى أن وجود البارود يتوقف على وجود ملحه Saltbetre وهو لم يكن معروفا فى زعمه قبل روجرز باكون

الا أن الراجح أن روجرز باكون نفسه قد عثر على الصيغة

الكيمية فى المرجع العربى الذى أشار اليه « أومان » فى تاريخ فن الحرب ، فان لم يصح هذا فالصحيح بلا مراء أن هذا الملح يوجد على سطح الأرض فى بلاد آسيا الشرقية ، ومنها الهند التى يوجد بها على سطح الأرض الى اليوم

وندع هذا ونرجع الى الزمن الذى انقضى بين كشف البارود والانتفاع به فى الحملات على القلاع والحصون

لقد مضت ثلاثة قرون منذ جاء ذكر البـــارود فى أوراق روجرز باكون الى أن أصبح قوة فعالة فى الهجوم على المعاقل المحصنة ، وقد مضت هذه القرون فى تنقية الأخلاط وضبط المقادير الصالحة لسرعة الانفجار ، وتركيب هـــذه الأخلاط تركيبا موافقا للأدوات التى أمكن اختراعها يومئذ سواء أكانت مما تحمله اليد أم تجره الخيول ، وكانت مشكلة الوقت الذى ينقضى بين اطلاق القـــذيفة وتعبئة المدفــع أو الرامية عقبــة معوقة ، ولم تكن من أسباب الاسراع والتغلب

ولا شك أن المنجنيق الذى كان يقذف الحجارة عــلى قرب قد كان أفعل من المدافع الأولى فى تهديد الحصــون والقلاع ، بل استطاع الهوجنوت الى أوائل القرن الثامن عشر أن يقاوموا المدفع حول الحصون بمتاريس التراب وما اليهــا ، فلم يكن البارود اذن هو القوة الحاسمة فى تغلب نظام على نظام ، ولم يكن استخدام المدفع الأول أسهل من فنون الفروسية التى احتكرها نبلاء القرون الوسطى

وأصح من هذا أن يقال ان البارود فى أوربة قد أفاد فى

ميدان الصناعة قبل أن يفيد فى ميدان القتـــال ، لأن بدعة الاسلحة النارية حولت الأنظار الى البحث عن الحديد والفحم ، فنشطت حركة التعدين واستفادت منها الصناعات الحديثة ، مع توالى الطلب عليه حسب حاجة العصر الحديث

* * *

ان كان فى سبق أهل الصين الى اختراع البارود قليل من الشك أو كثير فليس هناك قليل من الشك أو كثير فى سبقهم الى اختراع المطبعة بنوعيها ، ونعنى بالنوعين المطبعة الثـابتة التى تطبع الصفحات دفعة واحدة والمطبعة التى تعتمد عـــلى الحروف المنفصلة قبل تركيبها فى الصفحات

هذان النوعان من الطباعة وجدا فى الصين واليابان وكورية منذ اثنى عشر قرنا أو تزيد ، ولكن الطباعة بنوعيها لم تنقل الصين من أطوارها التى كانت عليها فى القرون الأولى للميلاد الى أطوار القرن العشرين كما شهدتها البلاد الأوربية

فلماذا لم يحدث هذا الانتقال فى الصين بفضل المطبعة كما حدث فى البلاد الأوربية ؟

لاختلاف الفكرة واختلاف الثقـــافة .. فان الفكرة التى اخترعت الكتابة الصينية قد جعلت لزاما على الطابع أن يستعد بمئات العلامات قبل أن يحيط بمقاطع الهجاء ، فلم يكن فى الطباعة تيسير ولم يكن فيها اسراع ولا ايجـاز ، ولم تنفـع أصحابها الذين سبقوا الغرب الى اختراعها بعدة قرون

أما اختلاف الثقافة فهاهنا هو بيت القصيد

فى الغرب كانت الثقافة هى التى طلبت المطبعة فوجدت المطبعة سدا لحاجة مطلوبة

وفى الصين وجدت المطبعة ولم تطلبها الثقافة ، فوقفت المطبعة عند غايتها الأولى ، وهى نقش الحرير وغيره من المنسوجات ، ولم تكن المطبعة وحدها هى القوة الفعالة فى توجيه الأفكار وتنبيه النفوس

وها نحن أولاء نبصر المطابع بيننا على أحسن صنع وأحدث طراز ، ونبصر كل يوم صنوفا من الكتب والمجلات والصحف تنشرها هذه المطابع وتيسر عرضها وتعلن القراء بظهورها ، ولكنني أسعى الى كتاب فاطلبه وأبذل فيه ثمنه ، وأمر بعشرات غيره فلا أطلبها ولا أقبلها بغير ثمن ، لأن المطبعة فى الواقع هى الأداة التى تكمن وراءها الفكرة الانسانية ، وليست هى العامل الحاسم الذى يملى على الانسان ما يقرأه وما يجب قراءته ، فضلا عما يأباه ولا يلقى عليه نظرة ولو كان بين يديه

وقد قيل ان المطبعة هى التى هدمت سلطان الكهانة ، ونسى هؤلاء القائلون ان سلطان الكهانة كان هو « العميل الأكبر » للمطبعة ولا يزال حتى اليوم كذلك • فان ملايين النسخ من الكتب الدينية لم تزل تصدر كل عام من المطابع منذ منتصف القرن الخامس عشر الى يومنا هذا ، ولو أننا أحصينا نسخ الأناجيل والشروح الدينية وأحصينا نسخ الكتب الأدبية والعلمية لكانت مادة الدين أرجح من كل مادة منفردة فى

أبواب العلوم والفنون والآداب ، ولو شاء قائل ان يقول ان المطبعة عززت سلطان الكهانة لكان له من الاحصاء دليل لا يقل في صدقه ووفرة شواهده عن أدلة القائلين بالهدم والتقويض

والمطبعة هى هى فى كل مكان • فمـا بال المطبعة فى بلد تخرج للناس مليون مصحف وتخرج فى البلد الآخر مليون انجيل ؟ بل ما بال المطبعة فى البلد الواحد تخرج هنا صحيفة محافظة وتخرج الى جانبها صحيفة حرة وتخرج معهما صحيفة بين بين ولا تمتد يد القـــارىء الا الى الصحيفة التى يعرفهـا ويريدها ويقبل آراءها ؟

ان سبب هذا كله فى رأس الانسان وبين جوانحه ، وليس مرجعه الى حديدة كبيرة هنا أو حديدة صغيرة هناك ، أو الى مطبعة تخرج مليونا فى الساعة ومطبعة لا تخرج غير الألوف فى الساعات والأيام

ولقد كانت المطبعة حقا « نقطة تحول » فى تاريخ الحضارة الانسانية ، ولكن الانسان هو الذى تحول فحولها وهو الذى طلب الكتاب فأوجد الأداة التى تعطيه الكتاب

واذا كان فى هذا العـــالم أناس ينظرون الى العقول وهى تزدهر ، والى النفوس وهى تتوثب ، فلا يستريحـــون حتى يردوا ذلك كله الى رطل من الحديد أو حفنة من الملح المسحوق فمن حقنا نحن أن لا نستريح كلما رأينا أداة تصنع الأعاجيب وتزودنا بسلاح المعرفة أو سلاح القوة الا أن نشـير من وراء ذلك الى النفس المتوثبة والعقل الخالد والقريحة المنجبة لنـا ما نريد

قدوة غير صالحة

تعود بعض الناس أن يعطلوا عقولهم عند وزن الكلام الذى يعرض عليهم ، فهم لا يزنونه بميزان النقــد والعلم والخبرة الصادقة ، ولكنهم يتركون حقائق الأقوال ويغترون بمظاهر القائلين • فان كان قائل الكلام غنيا أو وجيها أو صاحب نفوذ فكلامه صادق وبليغ ومقبول ، وان لم يكن كذلك فحكمتــه جهالة وصدقه كذب واخلاصه مشكوك فيه

لهذا جاء فى المثل السائر : أنظر الى ما قيل لا الى من قال•• وهى نصيحة رشيدة اذا كان الغرض منها أن نهتم بحقــائق الأقوال ولا نجعل اهتمامنا كله مقصورا على مظاهر القائلين

الا أن تمحيص الكلام لا يغنينا عن تمحيص المتكلم فى كثير من الأحوال ، ولهذا يهتم الناس دائما بتراجم العظماء وســير البلغاء ، ليعرفوا موضع الثقة ويتبينوا الفرق بين المخلصــين وغير المخلصين فى الهداية ودعوات الاصلاح • وقد أشرنا الى ذلك فى مقام آخر فقلنا : « ان الكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها » • وكلمة مثل قول المعرى :

تعب كلها الحياة فما أعجــ ب الا من راغب فى ازدياد

يؤخذ منها ما لا يؤخذ ممـــا تسمعه فى كل حين بين عامة الناس من السخط على الحياة • فاننــا نثق بأن المعرى مارس الأمور الجوهرية فى الحياة ودرس الشئون التى تكون بهــا

عذبة أو مرة ، ونكدا أو رغدا ، ولم يسبر منها أولئك العامة الا ما يقع لهم من أمور عرضـــية لا تكفى للحكم على ماهيـة الحياة ‥ وقد يقول أحدهم ان الدنيا كلها شر وظلم لأنه كان يطمع فى عشرين قرشا فلم يصل الى أكثر من عشرة قروش

فنحن نعرف الكثير عن دعاة الاصلاح خاصـــة اذا عرفنا كيف كانوا يطبقون كلامهم عـلى أنفسهم ، ونتبين الفرق بين الجدير منهم بالثقة والجدير منهم بالشك والريبة ، اذا عرفنـا أمانتهم فى تطبيق المذهب الذين يدعون اليه

على هذه القاعدة نعرض فى هـذا الحديث لسيرة زعيم من زعماء المذاهب الهدامة ، بل لعله أكبر زعيم من زعمائها ، وهو كارل ماركس الذى تنسب اليه الشيوعية ، فتسمى بالماركسية فى بعض الأحيان

كان هذا الزعيم يبنى مذهبه كله على أساس واحـد هو : « أن من لا يعمل لا يأكل » ‥ وبهذا المبدأ أراد فى دعواه أن يبطل استغلال العاطلين للعاملين

فاذا رجعنا الى سيرته فى حياته ، فمـــاذا نرى من دلائل الأمانة فى تطبيق هذا المبدأ الذى أراد أن يكون فيـــه قدوة للمقتدين ؟

خلاصة الحقائق المستمدة من حياته أن الناس جميعـــا لو جروا على طريقتـه لماتوا جوعا ، وأنه لو عاش بمـا كسبه من عمله لما عاش أكثر من سنة واحدة على أبعد احتمال

فى خطاب من خطابات أبيه المحفوظة يقول له : « ماذا تظن ! كأننا مصنوعون من الذهب ؟ » وفى خطاب آخر يقول له : « لسوء الحظ أراك تؤيد بسلوكك رأيى الذى كونته عنك ، وهو أنك على مافيك من خصال حسنة — أنانى تغلب الأنانية على جميع صفاتك »

وانما كتب أبوه اليه ماكتب فى هاتين الرسالتين ، لأنه كان لا ينتهى من طلب المال وانفاقه فى غير جدوى ، وكان يثقل على أبيه بالطلب مع علمه باتساع أسرته ، وقد كان فيها ثمانية أبناء يحتاجون الى التربية والتعليم

ومات أبوه فوجب أن يخلفه هو فى رعاية بيته ، ولكن الذى حدث هو أنه لبث الى الرابعة والعشرين من عمره عالة على أمه واخوته . فاضطرت أمه أن تكتب اليه ومعها أخته التى كانت تسمى صوفى ، وقالتا له : انه لا ينتظر بالبداهة أن يعيش « طفيليا أبديا » وأنذرتاه بقطع المعونة عنه اذا لم يبحث له عن مورد رزق يغنيه

فى تلك الآونة كانت تصدر فى بلاد الرين صحيفة تسمى « رنيش جازيت Rhenish Gazette وكانت تتطرف فى دعوتها الى الاشتراكية ، فأنذرتها الحكومة بالاغلاق اذا هى لم تعدل عن خطتها وتخرج منها الكاتب المسئول عن سياستها ، وكان شابا من أصحاب كارل ماركس اسمه روتنبرج Rutenberg فلما سئل كارل ماركس عن رأيه فى موقف الحكومة أشار باخراج ذلك الكاتب وقبل أن يتولى تحرير الصحيفة بعده .

وتولى التحرير فعلا على خطة جديدة تنحى على الاشتراكية والاشتراكيين ، وأعدادها التى كتب فيها تلك الحملات محفوظة الى اليوم

أغلقت الصحيفة بعد شهور من أجل مقالة تتعلق بالطلاق والزواج ولا شأن لها بالدعوة الاشتراكية ، فهجر كارل ماركس بلده وذهب الى باريس ليعلن الدعوة الاشتراكية التى كان ينحي عليها ، فلم تفلح الصحيفة الجديدة وعاد كما كان بلا عمل ولا رغبة فى العمل ، وظل يعيش من معونة كان يتلقاها من بعض أصهاره في هولنده ، حتى انقطع هذا المورد فألقى عبئه كله على أصحابه ومريديه

قد يخطر لأحد أن الرجل كان يترك طلب الرزق لأنه كان مشغولا بالدعوة الى مذهبه ، سواء كان مخلصا لهذا المذهب أو كان متهما فى اخلاصه

لكن الواقع أنه كان لا يطيق العمل لطلب الرزق ولا لنشر الدعوة • ففي هذه الأثناء أشفق عليه بعض رفقائه فأقنعوا لسكي Leske بالاتفاق معه على تأليف كتاب فى موضوع الاقتصاد وعلاقته بالسياسة ، وهو الموضوع الذى تدور عليه دعوته الشيوعية • فتم الاتفاق فى سنة ١٨٤٤ وقبض كارل ماركس من ثمن الكتاب ألفا وخمسمائة فرنك ، ومضت أربع عشرة سنة ولم يظهر الكتاب • وحلت سنة ١٨٥٨ فاذا بكارل ماركس يتفق مرة أخرى مع ناشر آخر على تأليف الكتاب •• وكان الناشر الجديد هو الهر دنكر Dunker الذي كان ينشر

رسائل الزعيم الاشتراكي لاسال • فانقضت السـنون ولم يظهر الكتاب الموعود

وضاقت موارد الرزق بالرجـل لكسله وأخلافه لوعـوده واتفاقاته ، وكان قد انتقل الى العاصمة الانجليزية ، وسـعى بعض عارفيه لتدبير عمل له يواظب عليه ويكسب منه قوته • فاتفق مع صحيفة نيويورك تربيون Tribune على مقـال أسـبوعى أو مقالين يرسلهما اليهـا من العاصـمة الانجليزية ويؤجر على كل مقال بعشرين شلنا ، فلم ينشط لكتابة هذه الرسائل واعتمد على زميله انجيلز ليكتبها باسمه ويسـاعده مـع ذلك بمعونة من عنـده ، ولم يزل كذلك حتى انقطعت مراسلته للتربيون

ويعتبر كتاب « رأس المال » انجيل الشيوعية المقدس عند أتباعها • فكان من المعقول أن يفرغ نبى الشـيوعية لاتمـام انجيله الذى تقوم عليه دعوته ، ولكن النبى لم يكن يقترب من صفحات انجيله الا تحت ضغط شـديد من الحاجة العـاجلة الملحة • وما هـو الا أن استقل زميله انجيلز بتجـارة أبيه واستطاع أن يخصص لكارل ماركس معاشا سـنويا دائما ـ حتى طوى النبى كتابه المقدس طى الأبد ، وتركه ناقصا كما بقى حتى الآن

هذا هو الامام الذى خرج للناس ليبشرهم بقداسة العمل ويبغضهم فى المتبطلين الذين يعيشون عالة على غيرهم •• فلو أنه عومل بالشريعة التى أراد أن يفرضها على الناس ، لهلك

جوعا وأنصفته الدنيا على حد قوله : « من لا يعمل لا يأكل » ولم يكن هو من الذين يعرفون أمانة العمـــل ويتحرجون من أخذ المال بغير جزاء

والعجب العاجب فى أمر هذا الرجل الذى استباح الأجر بغير عمل أنه خشى من منافسة الزعيم باكونين ، وبحث عن سبب للتشهير به وتجريحه وحمل المؤتمر الاشتراكى عـــلى فصله ، فمـــاذا كان السبب الذى بنى عليه حملة التشـــهير وطلب الفصـــل والتحقير ؟ سبب عجيب من كارل ماركس : وهو أن باكونين قد دنس سمعة الاشتراكيين ، لأنه اتفق مع ناشر فى روسيا عـــلى ترجمة كتاب ولم ينجز ترجمـــة ذلك الكتاب

ونص الحملة موجود فى سجلات المؤتمر ، ونص الاتفـــاق بين ماركس وبين لسكى وبين دنكر ـ موجود كذلك فى تراجم هذا الرجل المريب

فاذا كانت هذه الصفحة المدنسة مفتقرة الى ســـواد فوق سوادها ، فقد يزيدها سوادا أن نعلم أن باكونين كان أستاذا لكارل ماركس فى الآراء الديمقراطية ، وأن هذا الجزاء السىء كان نصيب كل أستاذ وكل زميل وكل صاحب اتصلت حياته بحياة هذا الرجل • وقد مضى بنا اسم الزعيم لاسال فى هذا الحديث ، وعرفنا منه أنه توسط لكارل ماركس عنـــد ناشر مؤلفاته ليساعده بنشر كتابه ، فمن شاء أن يرجع الى رسائل كارل ماركس فلينظر كيف كان وفاؤه لهذا الفضل عليه ؟ انه كان يقول عن لاسال أنه يفكر تفكير الزنوج ، وأن ملامحه تدل

على وراثة زنجية ، ثم يشفع ذلك بالتلميح الى عفاف أمهاته قبل جيل !

ويستطيع من شاء أن يرجع الى أسماء أساتذته وزملائه واحدا واحدا فلن يجد انسانا منهم سلم من تهمة شائنة أو وصف بغيض • ولا استثناء لغير شخص واحد هو الذى كان محتاجا الى معونته المالية مدى الحياة ، وهو فردريك انجيلز • ومع ذلك نقرأ رسائل انجيلز اليه فنرى كيف وصفه فى احداها بجمود العاطفة والأنانية ونقص المروءة والشعور

* * *

ان الحقائق التى لخصناها هنا عن زعيم الشيوعية بعض ما عرف عنه من هذا القبيل ، وكلها مستمدة من سجلات الحركة الشيوعية التى دونها دعاتها وأنصارها ، فمن كان لا يعميه غرض ولا هوى فلا صعوبة عليه في فهم الرجل على حقيقته التى لا تحتمل المغالطة والخداع ، فهو مثل فى التطفل ، ومثل فى طوية الشر والكنود ، ومن كان كذلك لا يقتدى به في شريعة العمل ولا تفيض نفسه بخير صحيح لمن يجهلهم من بنى آدم وحواء ، وقد كان أقربهم اليه يلقون منه الشر فى موضع الخير ، ولا يجدون فيه موضعا للثقة والاقتداء

الاصلاح والمذاهب الهدامة

كل مذهب من المذاهب الاجتماعية ، فالداعون اليه يزعمون أنهم يريدون به الخير ويقصدون الى الاصلاح

ولكن هذه الدعوى لا تصـــدق فى جميـع الأحوال ، بل تختلف المذاهب فى صلاحها حتى يأتى منها الضرر حيث تراد المنفعة • فمنها ما يصلح كثيرا وما يصلح قليلا ومنها ما يعطل الاصلاح ويفسده ، لأنه بطبيعته مناقض لطبيعة الاصلاح

مذهب المراكسيين ـ فيما نعتقد ـ من هـذه المذاهب التى تناقض الاصـــلاح بطبيعتها ، وتعطل الحركات المصـلحة ان تستقيم فى وجهتها ، وتضيع جهود الأمم التى ينبغى أن تتوفر وتصان عن الضياع ، وقد تعرف هذه الحقيقة بالتفصيل ، وقد يكفى فيها القليل من البيان لأنها لا تحتجب الا حين تحجبهـا عماية الهوى ولجاجة الغرض ، وهى لولا ذلك أقرب الحقائق الى الظهور والجلاء

فلا حاجة بالانسان الى البحث الطويل ليعلم ان الطب الذى يداوى جميع الأمراض بدواء واحد طب فاسـد ، أو ليعلم ان الطبيب الذى يعالج كل بنية بوصفة واحدة يدعى الطب ولا يصلح للتطبيب

فاذا كان الطب طب الأمم والمجتمعات فعلامة الجهـل ، أو علامة التدجيل ، أن يحاول الطبيب المزعوم مداواتها من جميع

العلل بوصفة واحدة ، وأن ينسى ذلك الطبيب أن الأمم تتفاوت فى الطبائع وتتفاوت فى العلل وتتباعد فى أسباب الشكوى كما تتباعد فى أسباب البرء من شكواها ، ولا يحدث فى وقت من الأوقات ان تشكو كلها علة واحدة وتصح كلها بعلاج واحد فقد يكون الشفاء لواحدة منها مرضا لغيرها ، وقد يكون النظام الذى يضرها فى فترة من الزمن هو المنفعة فى غير تلك الفترة

ان الأمة من الأمم تحس شكواها فتبحث عن علتها ، وقد تهتدى الى العلة مرة وتضل عنها مرة ، وهى فى اهتدائها وضلالها على السواء تتعلم وتقترب يوما بعد يوم من العلاج المفيد

وهكذا يكون العلاج الذى تستمده الأمة من كيانها وتعتمد فيه على تجاربها وهداية فكرها ووجدانها ، فتختار حكومة بعد حكومة وتنشىء نظاما بعد نظام ، وتشرع فى التجربة ثم تمضى فيها أو تعدل عنها أو تحتال على تعديلها ، وبهذه المحاولات تتربى الأمم وتتقدم ، وتبلغ رشدها من طريق النمو الطبيعى الذى ينمو عليه جميع الأحياء

ماذا يصنع الماركسيون ، أو الشيوعيون ، لأمم الأرض فى هذا العصر الذى نشطوا فيه للدعوة أو للاصلاح المزعوم ؟

هل تركوا الأمم تتربى وتتعلم ، وتستفيد من التجربة ، وتتخذ لها من ماضيها سبيلا الى حاضرها ومن حاضرها سبيلا الى مستقبلها ؟

كلا . لم يفعلوا ذلك ولم يميزوا بـــين أمة وأمة فى علل فسادها وأسباب صلاحها ، بل جعلوا الأمم كلها مريضا واحدا يتداوى بعلاج واحد ، وصنعوا كمـــا يصنع الخرافيون الذين يدعون الناس الى ترك دوائهم وترك أطبــائهم ، ويصفون لهم المعجزة التى تشفى من جميـــع السقام وتبرىء من جميـــع الشكايات :

ان اسم الدجال هو الاسم الذى يطلقه الناس بداهة على من يتصدى للعلاج وليس لديه غير علاج واحـد يصفه لمن يشكو بجوفه ويصفه لمن يشكو بعظامه ومن يشكو بأعصـــابه ، أو يصفه للطفل فى الرابعة وللفتى فى العشرين وللشـــيخ فى الستين والســـبعين ، أو يصفه للعجوز والفتـــاة والصبية والجارية ، كما يصفه للرجال فى جميع الأسنان وعلى اختلاف الأمزجة والأجسام

ان اسم الدجال هو الاسم الوحيد الذى ينطبق عـــلى من يتعاطى الطب على هذه الوتيرة ، ولكن هـــؤلاء الماركسيين أو الشيوعيين ، ينكرون أنهم دجالون ويؤكدون للناس انهم هم الأطباء النطاسيون . ووصفتهم مع هذا وصفة واحدة للصين والهند ، وللعراق ومصر ، ولروســـيا وفرنســـا ، وللجزر البريطانية والولايات الامريكية : معجزة لا معجزة مثلهـــا فى خرافات الأولين والآخرين ، تشـفى من الحمى والجـــذام ، وتشفى من السل والزكام ، وتشفى من الهيضة والطاعون ، وتشفى من العته والجنون ، وتشفى من الكســـور والجراح ، ومن العجز والكساح ، ومن الورم والسرطان وتصلح لـــكل إنسان ، في كل أمة وفي كل مكان

وآفة هذا المذهب الخبيث انه يعطل الاصـــلاح ويضلل عن طريق الصلاح ، فلا يعالج الأمم من دائها ولا يتركها تلتمس دواءها من تجاربها ومحاولاتها ، ولا سبيل الى تقدم أمة بغير هذه التجارب والمحاولات

ولقد ظهرت عواقب هذا البـلاء وتزداد ظهورا مـع الأيام والأعوام ، ولكننا نتمثلها ونتمثل مبلغهـا من الضرر الوخيم اذا رجعنا مع الزمن وقدرنا أن هذه الدعـوة الماركسية قد شاعت قبل خمسين سنة ، أو قبل مائة سنة ، فماذا تكون العاقبة اليوم ؟ وأين تذهب الجهود التي أثمرت ثمراتهـا فى هذه السنين ؟ أين كانت تذهب اليقظة التى تيقظتها الصين ؟ وأين كانت تذهب نهضة الحرية فى الهند ؟ وأين كانت تذهب حركات الاســتقلال فى أقطار المشرق والمغرب ؟ وأين كانت تذهب العلوم والصناعات التى أسفرت عنها دعوات الاصلاح كما تنوعت بين أنواع الأمم والأقوام ؟

لو قال قائل للأمم قبل خمسين سنة : ان الاصـــلاح كله عبث ضائع ، وان الدواء كله هو الثورة العالمية التى يبشر بها الماركسيون ، فأى خسارة كانت تحيق بالأمم ، وأى ضـياع للجهود كانت تبتلى به لو سمعت منهم ذلك النعيب ، وانطلقت معهم فى الهدم والتخريب ؟

لا فرق بين كثير من الأمم فى وقتنا هذا ، وبين كثير من الأمم كما كانت قبل خمسين سنة ، ولا تزال هذه الأمم فى حاجة الي التقدم بوسائلها التي لا تتشابه بين أمة وأمة ، وإلا

يتأتى الاعتماد فيهـــا على شيء غير تراث الأمة فى ماضـيها وتجاربها فى حاضرها ، فاذا ابتليت احداها بدعوة الشيوعية فسوف تعوقها خمسين سنة عن طريقها ثم تعود بعــد زوال الغاشية الى نفسها لتستأنف جهودها فى طريق تعترضـــــه الخرائب والأطلال

وكما تعوق الماركسية اصلاح الشعوب ، تتسرب الى ضمائر الأفراد فتعوق اصلاحهم وتصرفهم حتى عن محاولة الاصــلاح بالوسيلة التى تم بها كل اصلاح ، وهى وسيلة الندم ومحاسبة النفس وعرفان الخطأ والعمل على اجتنابه والخلاص من جرائره ومغرياته ودواعيه

فمن قديم الزمن لم يعرف الانسان سبيلا الى اصلاح عيوبه غير محاسبة النفس والعودة عليها باللائمة فى حالة التقصير ، فيندم المخطىء على خطئه ويجتهد العاجز فى استدراك نقصه ، والأخلاق كلها تقوم على شعور الانسان بمسئوليته أو ايمانه بأنه مكلف مسئول عن عمله

أما الماركسية فهى تهدم هذا الأساس الذى لاقوام للأخلاق بغيره ، وتقول للمذنبين والمقصرين انكم جميعا أبرياء من التهمة منزهون من الوصمة ، لأن اللوم كله على المجتمـــع فى عجز العاجز وفساد الفاسد واجرام المجرم وتقصير المقصر • فليس على اللص أن يعف عن مال غيره لأن المجتمع كله قائم عـــلى السرقة والاستغلال ، وليس العجز من عيوب الانســان لأن القادرين فى المجتمــــع هم المتغلبون بالقوة والفــائزون بغير استحقاق ، وليس الكذب عيبـــا مادامت العلاقات الاجتماعية

قائمة على النفاق والاختلاق ، وليست الفحشاء عارا لأنهـــا نتيجة محتومة لنظام العـــائلة والزواج كلما شـــاعت آداب رأس المال ، وليس السقوط فى مراتب الاجتماع نقصا يلام عليه الساقط لأن المزايا الاجتماعية غش وخداع واختلاس ، وهذا وأشباهه هو الذى يقال للعجزة والســاقطين فيصرفهم عن الاجتهاد فى اصلاح نفوسهم ويفعل فى ضمائرهم فعـــل المسكرات والسموم

واذا فرضنا نجاح الشيوعية يوما فان مقاييس الأخلاق بعد نجاحها أهبط وأدنأ من مقاييسها فى ابان نشر الدعوة اليها ، لأنها لا تعلم النـــاس أن يمتنعوا عن السرقة عفـة وأنفة من خســـتها ، ولا تعلمهم أن يمتنعوا عن الظـلم برا بالضعيف وايمانا بمبادىء العدل والكرامة ، ولا تعلمهم أن يمتنعوا عن الفساد صيانة للأعراض وغيرة على الانساب . كلا .. انهـــا لا تعلم الناس الفضيلة بل تصور لهم المجتمع الشيوعى كأنه عالم تمتنع فيه السرقة لامتناع وسائلها وعجز النـــاس عن ارتكابها ، ويمتنع فيــه الظلم لامتناع الاســـتغلال وامتنـاع التسلط الذى ينشأ من الاستغلال ، ويمتنع فيه الفساد لأن المباح والمحرم يستويان فى الأنظمة الشيوعية ، فكل ما عند المجتمع الشـيوعى من وعود الاصـــلاح هو تجريد اللص من السلاح واخلاء الصندوق من المـال المطموع فيـه ، ولن يقوم مجتمع قط على هـــذه الخلائق السلبية التى لا تعترف بقوة الضمير ، فليس فيه فضيلة الا وهى فى حقيقتها رذيلة موقوفة التنفيذ

وصلاح العقل مهدد فى النظام الشيوعى كصلاح الأخلاق ، لأن المطلوب فيه من العلم أن يوافق المبادىء الشيوعية وليس المطلوب فيه من المبادىء الشيوعية ان توافق العلم أو توافق المنطق المعترف به بين جميع الناس . وعندهم أن العلم ينبغى أن يكون علما شيوعيا خاضعا لتفكير ماركس ولينين وستالين .... وكلامهم عن ذلك صريح يعلنونه في الخطب وينشرونه فى الكتب .. ومنه كلام الأستاذ فافيلوف Vavilov رئيس مجمع العلوم في موسكو حيث يقول من بحثه عن العلم السوفيتي فى صورته الجديدة « أن العلم السوفيتى لم يكن قصاراه أنه فرع من العلم العالمى يتخذ مكانه فى الجمهوريات الروسية المتحدة . كلا . بل هو علم منعزل مختلف بطبيعته ونطاقه . ومزيته الأولى هى أنه دون غيره يقوم على أساس فلسفي واضح ، وهو الأساس الذى لا غنى عنه للبحوث العلمية ، وعلمنا نحن له أساس من المادية الثنائية التى قررها ماركس وانجيلز وزكاها لينين وستالين »

وهذا هو البيان الصريح الذى يجهر به رئيس مجمع العلوم فى البلاد الشيوعية ، ولا يخلو كلام للعلماء الشيوعيين أمثاله من عبارات الحزبية العلمية كحديثهم عن روح الحزب فى الرياضيات والنظريات الماركسية اللينينية فى الجراحة ، فكل فكرة علمية أو فلسفية أو أدبية تخالف الأصول التى وضعها ماركس ولينين وستالين فهى تهمة للعالم أو الفيلسوف أو الأديب الذى يهتدى اليها ، وشبهة على اخلاصه للحزب والمذهب والدعوة كلها في جملتها ، ولم يعرف التاريخ في

أظلم عصور الظلام حجرا على العقــل البشرى كهــذا الحجر العنيف فى منتصف القرن العشرين الذى يقال عنه انه عصر الحرية والنور

* * *

ان الحياة الانسانية كثيرة النقائص والعيوب ، وانهــا لفى حاجة دائمة الى الاصلاح والعلاج ، وأن المذاهب الاجتماعيــة التى تدعو الى اصلاحها لكثيرة منوعة ، ولكننا نهتدى الى شيء نافع حين نعرف منها المذاهب التى تعطل الاصــلاح وتعوق المصلحين ، وعلى رأسها ولا ريب هـــذا المذهب الوخيم الذى يشعوذ على الأمم المختلفة بعلاج واحد ، ويسقط عن الانسان مسـئولية عمله ، ويحجر عــلى العقل البشرى أن يمضى فى طريقه المستقيم

الدعوات الهدامة والناشئة (١)

يستحق أن يسمى مذهبا هداما كل مذهب يقضى على جهود الانسانية فى تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التى بذلها الانسان للارتفاع بنفسه من الاباحية الحيوانية الى مرتبة المخلوق الذى يعرف حرية الفكر وحرية الضمير .

ومذهب كارل ماركس ـ صاحب الدعوة التى اشتهرت باسم الاشتراكية العلمية ـ فى مقدمة المذاهب التى تهـدم ما بنته الانسانية فى تاريخها الطويل ، لانه يبيح لكل طبقة أن تهدم ما بنته الطبقة التى تقدمتها ، كأنه لم يكن من عمل بنى الانسان .

هذه المذاهب ينتقدها المنتقدون من الوجهة العلمية كما ينتقدونها من الوجهة التاريخية ، ولولا أنها مذاهب تختلط بالغرائز والشهوات ، وتسرى بين الاغرار والجهلاء ، لما تحملت شيئا من النقد العلمى ولا من النقد التاريخى ، لان بطلانها أظهر من أن يحتاج الى عناء شديد فى النقد والتنفيذ .

فهمها يكن نصيب الانسان من العلم قليلا ، ومهما يكن نصيبه من استقلال الفكر محدودا ، فهو ـ لولا الغرائز والشهوات ـ يستطيع أن يفهم أن العلم الانسانى لن ينتهى الى انسان واحد كائنا ما كان ، ويستطيع أن يفهم أن الرأس الذى يدعى أنه أحاط بأسرار الكون كله ، ونفذ الى حقائق التاريخ كلها ، ووصل الى النتيجة التى لا تتغير من بعده ولا يطرأ عليها تعديل ولا تبديل الى آخر الزمان ـ هذا الرأس يدعى مالا يقبله

عقل عاقل ،ولا يصلح لهداية الانسانية فى طريق العمار والفلاح .

وكارل ماركس لا يدعى شيئا أقل من هذه الدعوى العريضة التى لم يجترىء على أدعائها أحد من قبله ... لانه يزعم أن فلسفته أحاطت بأسرار المادة والحياة ، وأسرار التاريخ والاجتماع ، ووجب أن يدين بها الناس فلا يغيروا منها كثيرا ولا قليلا فيما يأتى من الدهور والاجيال ، بل وجب أن يعتمد الناس على فلسفته هذه ليهدموا عالمهم بأيديهم ، كأنه معصوم من كل خطأ يدعو الى التردد قبل هذه المجازفة ... وأى مجازفة ؟ . أنها المجازفة بتحطيم عالم كامل ، لا بمجرد تحطيم بيت أو مدينة أو وطن واحد يجمع المدن والبيوت .

ولا حاجة الى الاطالة فى البحث العلمى لانكار هذه الدعوى من أساسها ، فهى كلام لا يحتمل البحث الجدى ولا يصغى اليه المرء وهو مفيق من غمرة الشهوات والغرائز العمياء .

على أن بطلانها من ناحية الشعور لا يقل عن بطلانها من ناحية التفكير .

فعندما يخاطب كارل ماركس أتباعه ويأمرهم بتخريب المجتمعات قاطبة يقول لهم ما معناه : أخربوها فليس عندكم ما تفقدونه فيها .. ؟

وما من عقل يفيق من غمرة الشهوات والغرائز العمياء ، يسمع هذه الدعوة فيخطر له انها دعوة خير وفلاح . لانها حركة

يأس وقنوط ، ولن يتحقق رجاء العالم من وراء اليأس والقنوط ، ولن يصلح العالم من لا يبالون بخرابه ولا يترددون فى تحطيمه • ولن يعطى الانسانية أملا من فقد كل أمل ، وتساوى عنده التخريب والتعمير • بل أصبح التخريب أحب الى نفسه من التعمير •

اليأس لا يفكر ولا يبالى ، ولانه لا يفكر ولا يبالى يخاطبه دعاة التخريب والتحطيم ، ولا يهمه صدقوا أو كذبوا فى وعودهم • فان صدقوا فهو مخرب ، وأن كذبوا فهو مخرب • وويل للانسانية من مصير يهجم عليه من فقد العقل والرجاء •

ومن الجائز أن يوجد بين الناس من يستبيحون تخريب العالم لانهم محرومون فيه • ولكنها اذن حركة شر لا حركة خير ، ولا فرق بين هذه الحركة وبين حركة السباع التى تنطلق من الغابات فى طلب الفريسة • فليست هى على هذا الاعتبار عقيدة انسانية أو مذهبا من مذاهب الفكر التى تقنع بالدليل وتقبل المناقشة بالبرهان • وانما هى كارثة تمسخ الطبيعة الآدمية فترتد الى ضراوة الوحشية ، ولا تميز بين العمار والخراب •

وفى العصر الحاضر كثير من الشبان المتعلمين تروعهم حالة البؤس والفاقة التى يبتلى بها المحرومون ، وهى حالة تروع النفوس الكريمة وتحزن من يفكرون فيها ، ولا يلام أحد على انكارها وطلب الخلاص منها ، ولم يكن بلاء الحرمان قط موضع خلاف بين طلاب الاصلاح ، وانما الخلاف في العلاج الذى يدعو

اليه طلاب الهدم والخراب • فاذا كان العلاج سما فهو شر من الداء الذى يعانيه المريض • ومن الواجب على من ينكر المرض أن ينكر السم من باب أولى •

ما من أحد يقول ان المريض غير مريض ، ولكن الذى يقولونه هو أن الطبيب غير طبيب ، وأن الدواء الذى يصفه سم يميت ولا يرجى منه شفاء ، وفرق عظيم بين القولين •

على أن الحلال بين ، والحرام بين ، وللحق علاماته وللباطل كذلك علاماته ، وأبناء هذا الجيل ـ ممن أصابوا حظا من العلم ـ خليقون أن يعرفوا تلك العلامات من تجارب الانسانية التى نسميها التاريخ ، ومن بداهة الفكر التى يهتدى اليها الطبع السليم •

فلا حق ولا صلاح فى مذهب يدعى علم الماضى كله وعلم المستقبل كله ، ويرسم لابناء هذه الدنيا مستقبلا لا ينحرفون عنه ولا يتصرفون فيه أو تصرفهم فيه نواميس الكون وطبائع الامور •

ولا حق ولا صلاح فى مذهب يجعل الاطوار التاريخية جميعها مرهونة بالفوارق بين الناس فى المال أو فى انتاج المال ، وينسى تلك الفوارق التى لا عداد لها بين القوى والضعيف ، وبين الذكي والغبى ، وبين المجتهد والكسلان ، وبين الطموح والقانع ، وبين الجميل والقبيح ، وبين المنجب والعقيم • فان كان هناك عقل يتوهم أن هذه الفوارق ملغاة معطلة فى تاريخ الانسانية وأن الفارق الوحيد الذى يعمل فى هذا التاريخ

هو فارق الأجور وأسباب الانتاج ، فهو هو العقل المعطل أو المضلل الذى لا يدرك طبائع البشر ، ولا يصلح لهدايتهم الى سبيل التقدم والفلاح .

ولا حق ولا رجاء فى مذهب يقوم على اليأس والقنوط ، ويأمر بالشر والعداء ، ويوجه خطابه الى أسوأ الاخلاق فى أسوأ النفوس ، مستعينا بالحسد تارة وبالحقد تارة أخرى ، وبالغرور والتواكل فى جميع الاحوال .

ولا حق ولا انصاف فى مذهب يمحو مسئولية الفرد ويلقى بالمسئولية كلها على ما يعيبه من المجتمعات والامم . بعد أن تقدم الفرد فى طريق الحرية ، وكاد أن ينحصر التقدم الانسانى فى نتيجة واحدة : وهى المسئولية الفردية : مسئولية الانسان الذى يحاسب بأخلاقه وأعماله ، ولا يفرض فيه أنه فى قبضة المجتمع آلة من الآلات .

ولا حق ولا تمييز فى مذهب يطلق نوع الانسان بعضه على بعض وحوشا تتوثب على وحوش ، مذهب يجهل نوع الانسان أو يتجاهله تعصبا لطبقة واحدة منه دون سائر الطبقات ، كأنها هى وحدها التى تستحق صفة الانسانية ، وما عداها من غير بنى الانسان .

فليس الاغنياء كلهم بالشياطين الاشرار وليس الفقراء كلهم بالملائكة الاخيار . وقد أساء الاغنياء قديما وحديثا ويسيئون غدا الى غير نهاية ، وأساء الفقراء قديماً وحديثا ويسيئون غدا الى غير نهاية .

فما كان الغنى كله اثما واجراما ولا كان الفقر كله طهرا وبراءة • وقد استفادت الانسانية من عمل الاغنياء كما استفادت من عمل الفقراء ، بل لولا الغنى الذى مكن لبعض الناس من اقامة الصروح الباذخة والتدثر بالملابس الفاخرة ، واقتنـــاء التحف الثمينة ، لما وجدت هذه الصناعات التى يعيش منهـا ألوف العاملين فى كل بقعة من بقاع العـــالم المعمور ، ولولا مطالب الغنى فى الازمنة الماضية لما سارت القوافل فى القفار ولا مخرت السفن المشحونة عباب البحار ، ولا اهتم أحد برصد الافلاك التى تهدى الراحلين • فى الملاحة والسياحة ، ولا ارتقى فن البناء أو فن النجارة أو فن النسيج ، وما اليها فى هـــذه الفنون التى عم نفعها الغنى والفقير والمالك والاجير •

وأن كاتب هذه السطور يبغض الشيوعية وليس هو من الاغنياء ولم يكن قط من الاغنياء ولن يكون يوما من الاغنياء • ولكنه يرى أن الفقير الذى يحجب الحقيقة عن نظره بيديه ، يحرم نفسه نعمة الفهم ويجمع خسارة العقل الى خسارة المال • ومن ظن أن مذهبا من المذاهب سيمحو عيوب الاغنياء ويترك بنى الانســـاء مبرأين من العيوب فهو غافل راض عن الغفلة ، ومثل هذا أجدر بالرثاء له من الجائع والمحروم •

كل أولئك المذاهب والدعوات بين الضــــلال والبطلان ، ولا يستعصى على أحد أن يلمح علامات بطلانه اذا جرد نفسه من الهوى المفســـد للشعور والتفكير • لانه يعمى ويصم كما يقولون •

انما يرجى صلاح الانسانية من المذاهب التى تبشر بالتعاون والاخاء ، لا من المذاهب التى تثير العـداوة والبغضاء . انما تتقدم الانسانية بجميع أجزائها لا بجزء واحـد منها نسميه باسم طبقة ما فى كل عصر من العصور .

ومن علامات المخربين والهـدامين انهم يخدعون النـاس بالاباطيل ، ومن علامات الخداع بالاباطيل أن يقال لليائسين أنكم ان خربتم هذا العالم بما فيه من الفساد جاءكم عالم آخر كله صلاح وعدل وانصاف .

فالحق الذى لا شك فيه أن الناس لن يستغنوا عن اصلاح جديد فى كل عصر جـديد : كأنهم الطفل الذى يودع نقص الطفولة ليعالج نقص الشباب ، ويودع نقص الشباب ليعالج نقص الرجولة ، ويترقى بذلك درجة بعـد درجة فى معارج الكمال .

وغاية الفرق بين الفرد والنوع الانسانى أن الفرد يشيخ والنوع الانسانى لا يشيخ . وأولى الناس أن يؤمنوا بهـذه الحقيقة هم أبناء الجيل الجديد . لانهم شباب يرجى منه العمل لتخليد الشباب ... وتلك دون غيرها هي العصمة من آفة الهدم ، لانها دعامة كل بناء .

الدعوات الهدامة والناشئة (٢)
والجيل الجديد

اشتهر عصرنا هذا بالدراسات النفسية ، وتناول الباحثون بهذه الدراسات أحوال الأفراد على اختلافهم ، وأحوال الأمم على اختلافها • فبحثوا في نفسية البطل ونفسية العبقري ونفسية المجرم ونفسية الطفل والمراهق ، وبحثوا كذلك في أطوار الجماعات وعقائدها وعوامل التأثير فيها • واستفاد الناس من هذه المباحث فوائد شتى في شئون التربية والتعليم والسياسة

ولكن هذه الدراسات النفسية قد أصابها ما يصيب كل بدعة جديدة ، يلهج الناس بها زمنا من الأزمان : أصابها الافراط في تطبيقها على كل شيء وكل حالة ، فاصبحنا ونحن نسمع بالعقد النفسية في تعليل كل مشكلة من المشكلات الخاصة أو العامة ، وكلما ذكر الذاكرون بدعة في سلوك بعض الجماعات ، أو سلوك بعض الأفراد ، وجدنا من يقول : هذه عقدة نفسية • هذه نزعة مكبوتة • هذه حالة من حالات الوسواس التي يعالجها الأطباء النفسانيون •• وليس الأمر دائما على هذا الوصف الذي يصفونه ، فان المشكلات الاجتماعية كثيرا ما ترجع الى أسباب لا علاقة لها على الاطلاق بالعقد النفسية ، سواء بحثنا عن هذه العقد في نفوس الأمم أو نفوس الأفراد ، ومن الواجب أن نعرف هذه الحقيقة اذا أردنا أن نواجه مشكلاتنا ونصلح من أمورنا ، لأن للصواب

في تشخيص الداء هو نصف العلاج

من المشكلات التي يردونها الى العقد النفسية مشكلة الشاب العصرى وموقفه من الدعوات الهدامة ومذاهب الفوضى والانقلاب

فمن المحقق أن الأمراض النفسية تدفع ببعض الشبان الى الاصغاء لهذه الدعوات ، بغير بحث فيها ولا معرفة لحقيقتها

ولكن من المحقق أيضا أن مشكلة الشاب العصرى ـ فى هذه المسألة ـ لا ترجع كلها الى الأمراض النفسية المزعومة ، بل يرجع الكثير منها الى أحوال تتعلق بنظام التعليم أو من التعليم، أو تتعلق باتساع العلاقات العالمية واشتراك بني الانسان جميعا في ظروف متشابهة ، وكل أولئك لا شأن له بالأمراض النفسية ولا بالأطباء النفسانيين ، وقد يكون الشأن فيه للمصلحين من رجال التربية والسياسة ، قبل غيرهم من القائمين بالاصلاح

فمن المصاعب التى تصادف الشاب العصرى أنه يبقى فى المدارس الى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، اذا أراد أن يتخرج من المدرسة العالية

لم تكن هذه المشكلة مما يواجه الشاب فى العصور الماضية، لأنه كان يكتفي بمعرفة القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وشيء من المعارف العامة ، ولا يبلغ الخامسة عشرة حتى يكون قد أخذ نصيبه فى المعرفة اللازمة له فى معيشته ، ثم يتزوج وهو فى باكورة صباه ، فيحمل أثقال المسئولية ولا يتسع وقته لغير شواغله الخاصة ، أو يشتغل بما يسمعه من المسائل العامة

وهو على انفراد • لأنه لا يجتمع بالمئات والألوف من أقرانه كما يجتمع اليوم طلاب الكليات والجامعات

أما اليوم فالشاب يتعلم في مدرسة بعد مدرسة حتى يبلغ الخامسة والعشرين أو يجاوزها أحيانا الى الثلاثين • فهو يقضى فورة الشباب الأولى في دور التعليم • لا يزاول تجارب الحياة ولا تثقله تكاليف المسئولية ، ولا تتيسر له المعيشة الزوجية قبل اتمام تعليمه واستعداده للعمل فى المجتمع أو فى وظائف الحكومة ، ومع خلوه من المسئوليات والتجارب التى تضطره الى التأنى والتردد — لا يزال فى قلق الشباب مشتركا مع المئات من أقرانه فى مثل هذا القلق ومثل هذا الخلو من المسئولية ، وهذه فرصة سانحة لمن ينشرون دعوات الهدم والفوضى ، فاذا استغلوا فرصتهم فهناك أسباب غير العقد النفسية تفسر هذا الاستغلال أو تفسر موقف الشاب العصرى من تلك الدعوات

وهذا الشاب الذى يتعلم حتى يناهز الثلاثين ، يفوق فى المعرفة أنداده من أبناء العصور الماضية بلا مراء ، ولكنه لا يفوقهم فى الخبرة ولا فى المسئولية • لأن الشاب — فى العصور الماضية — اذا بلغ الثلاثين كان صاحب أسرة ومسئولية ، وكان قد مارس التجارب عدة سنين ، فهو يعوض بالتجربة والمسئولية ما فاته من المعارف المدرسية التى يتعلمها الشبان المصريون فى هذه الأيام

على أن المعرفة القليلة كانت كافية للشاب فى العصور الماضية لأن المسائل العامة التى تشغله قلما تتخطى حدود

قريته أو حدود وطنه ، وهى لا تتطلب منه رأيا جديدا ، أو حلا جديدا لمشكلات ذلك الوطن أو تلك القرية

أما اليوم فأخبار العالم من جميع القارات تصل الى البيوت فى كل قطر وكل بلدة : تصل من طريق الاذاعة أو من طريق الصحف أو من طريق الصور المتحركة . فالمعارف الكثيرة التى يتلقاها الشاب العصرى فى المدرسة لا تكفى لادراك مشكلات العالم بأسره ، ولا تغنى فى الاحاطة بأسبابها ودواعيها ووجوه النظر فيها ، ومنها ما يحتاج الى دراسة التاريخ الانسانى من أوله ، ومنها ما تشتبك فيهمعضلات العلم والاقتصادوالسياسة والتشريع ، فهو بالنسبة الى أنداده فى العصور الماضية أقل منهم قدرة على فهم مشكلاته وتدبير سلوكه ، وان كان أوفر نصيبا فى الدرس والاطلاع

واذا أردنا أن نضرب مثلا للفرق بينهما قلنا : ان الشاب فى العصور الماضية كان يستضىء بشمعة واحدة ولكنها تنير له مسكنه كله ، لأنه كان يسكن فى حجرة صغيرة

أما الشاب العصرى فانه يستضىء بعشرات الشموع ولكنه لا يزال فى الظلام . لانه يريد أن يضىء منزلا متعـدد الغرف والحجرات

* *

وهناك فارق آخر بين الشاب العصرى والشاب فى العصور الماضية ، يرجع أيضا الىاختلاف النظم الاجتماعية والسياسية، ولا يرجع الى مرض من أمراض النفس المزعومة ، ولكنه فارق

يؤثر فى اختلاف الموقف بينهما من ناحية المذاهب أو الآراء الاجتماعية

هذا الفارق الكبير هو فارق الحرية فى العصور الحديثة

ففى العصور الماضية كانت سياسة الدول سرا من أسرار القصور لا يطلع عليها أحد غير حكام الدول والمقربين اليهم ، واذا اتصل خبر من أخبارها بعامة الناس تلقوه بين التصديق والتكذيب ، واغتبطوا بالاطلاع عليه والتحدث فيه ، كأنهم قد اطلعوا على نبأ من أنباء العالم الآخر ، ولم يكن خبر من هذه الأخبار ينتشر بين الناس فى صورة الوقائع العلنية التى يتناولها الكلام الصريح والتعليق المتواتر ، سواء كان ذلك الخبر من الأسرار الشخصية الخاصة أو من أسرار الدولة ومعلومات السياسة العليا كما يقولون فى هذه الأيام

وكان من نتيجة هذا الكتمان الذى يحيط بأعمال الحكام وأحوالهم أن عيوبهم ونقائصهم ظلت مجهولة مشكوكا فيها ، ولم تكن على الأقل موضوع الأحاديث الشائعة فى المحافل والبيوت ، فاحتفظوا بالهيبة التى تعصمهم من الابتذال ، وأحاطت بهم شعائر التوقير التى توجب الثقة والاطمئنان

أما اليوم ـ فى ظل الحكومات الديمقراطية ـ فأحوال الحكام معلومة ونقائصهم مشهورة ، وهم يتنازعون فيما بينهم ويجتهد كل فريق منهم فى اعلان أخطاء خصومه ومنافسيه ، وربما شاع اللغط بشئونهم الخاصة فى بعض الصحف أو النشرات التى لا تتورع عن الخوض فى هذه الشئون . وكثيرا

فما يحـــدث أن حكام دولة يحملون على حكام دولة أخـــرى ؛ ليتهموهم بنقض العهود وتعكير صفو الســـلام وتهديد العالم بالمنازعات والحروب

ومن البديهى أن هـــذه العيوب كانت موجـودة فى حكام العصور الماضية ، وربما كان حكام العصر الحـــديث خيرا من أسلافهم فى كثير من المزايا والصفات ، ولكن الحكام فى العصور الماضية كانوا مستورين موقرين فكانوا موضع الاحترام والثقة والاطمئنـــان ، أما حكام العصر الحـــديث فلا تخفى عيوبهم ونقائصهم كما خفيت عيوب الأقدمين ونقائصهم ، فلا عجب اذا اجترأ عليهم المجترئون واستعدت الأسماع دائما لقبول الطعن فى الحكومات وقبول دعوات التغيير والتبديل ، بل قبول دعوات الفوضى والانقلاب ، وبخاصـــة اذا كان السامعون خلوا من التجربة ، قاصرين عن فهم المقـــارنة بين الحاضر والمـاضى ، والمقارنة بين الحاضر والمستقبل ، مسرعين الى اســـتجابة كل صوت ينادى بالتغيير ، عن جهـــل منهم بسوء النية وســوء المصير

واتفقت هـذه الفوارق ، أو هـــذه الطوارق ، فى جيلين متعاقبين ، شهد كل منهما حربا عالمية عمت جوانب الـــكرة الأرضية ، ديست فيها الحقوق والحرمات ، وتخللها ما يتخلل الحروب من شر وفســـاد واجتراء على الأنفس والأعراض ، واختلال فى توزيع الثروة بالكسب الحلال أو بالكسب الحرام، ونشأ الأطفال والصبية فى هذين الجيلين وآباؤهم مشغولون عنهم فى ميادين القتال أو فى ميادين السعى والاجتهاد ، فلم

يشعروا بالوازع الأخلاقى الذى كان الناشئون يشعرون به فيما مضى ، وينتفعون به فى التأنى والتريث قبل الاندفاع فيها يجهلون عقباه

هذه العوارض كلها ترجع الى أسباب نظامية أو سياسية لا علاقة لها بالعقد النفسية التى يتردد ذكرها فى هذا الزمن ، وليس حديثنا اليوم مما يتسع للبحث فى علاجها واتقاء أضرارها ، لأن البحث فى هذا الموضوع مهمة يشترك فيها المصلحون من أقطاب التربية والتشريع والسياسة ، ويستلزم النظر فى تقدير زمان التعليم ومكانه والتوفيق بين تحصيل العلم ومسئوليات الحياة البيتية أو الحياة الزوجية ، وكل أولئك محل للتأمل والمراجعة وتكرار التجارب فى مختلف البيئات والمجتمعات .

انما أردنا بالاشارة الى هذه العوامل أن نرجع ببدعة العقد النفسية الى حدودها المعقولة . فليست كل مشكلة اجتماعية عقدة نفسية فى الأمة ، وليست كل نزعة طارئة عقدة نفسية فى هذا الانسان أو ذاك ، وللمشكلات الكبرى والصغرى أسباب غير العقد النفسية والأمراض النفسية ، فما كانت هذه الدنيا مستشفى نعلل كل حادث فيه بالعلل ، ونحول كل داخل فيه الى حجرة الاسعاف . ولكنها دنيا معاش وعمل ، قد تطرأ شكاياتها من جانب الصحة كما تطرأ من جانب المرضى . والمهم أن نعرف ما نشكوه على حقيقة ، لأننا لا نزيل الشكوى ونحن نجهل أسبابها ، ومن عرف ماذا يشكو عرف كيف يطلب السلامة والنجاة

العائلة والوطن والدين

العائلة والوطن والدين أقوى الدعائم التى قام عليها بناء الحضارة الانسانية .

ولو اننا نزعنا من تاريخ الانسان كل ما استفاده من تكوين العائلة والوطن والدين ــ لما بقى من الانسان المتحضر أثر ، ولعاد الانسان كرة أخرى الى الهمجية ، بل الى الوحشية ، لأن الفارق الأكبر بين أبناء الحضارة وبين الهمج أو الوحوش، هو الألفة بين الانسان وأهله واخوته فى وطنه ، وهو الهداية التى استمدها من شرائع الوطن وآداب الدين

ومن تعاسة الهدامين الداعين الى الفوضى والفساد أنهم يهدمون كل دعامة من هذه الدعائم ، ويزعمون أن الخير كل الخير فى نقضها ومحو آثارها واعلان العداء للماضى بأسره ، كأنهم يعلنون العداء على ماضى نوع آخر من الحيوان ، غير نوع الانسان

ولو كان التقدم الذى يتحدثون به معناه أن يهدم الناس كل ما بنته الانسانية فى غابر عصورها ، لوجب أن نلغى ماتعلمناه من صناعاتها فى مآكلنا وملابسنا ومساكننا وآلات المعيشة فى بيوتنا ومجتمعاتنا ، ولكن دعاة الهدم والتخريب لايجترئون على الدعوة الى هذه الحماقة .. لأن الخراب الذى تؤدى اليه محسوس ملموس لا يقبل الجدل ولا المغالطة ، ويخيل اليهم أن الخراب الذى يؤدى اليه هدم العائلة والوطن والعقيدة أهون من ذلك الخراب الذى نحسه ونلمسه ، والواقع أن هدم العائلة

والوطن والدين أسوأ عاقبة من هدم الأماكن والبيوت

من العائلة دون غيرها تعلم الانسان أصول الاجتماع وقواعد الأخلاق وعلاقات التعاون بين العاملين فى البيئة الواحدة ، وفى كل لغة من لغات العالم شواهد على ذلك تظهر لنا من مراجعة الكلمات التى تدل على الفضائل والصفات المحمودة

فالرحمة مأخوذة من الرحم وهو القرابة فى الأمهات والآباء

والكرم مأخوذ من الأصل العريق المنزه عن الأخلاط والأوشاب

والحرية أيضا تفيد هذا المعنى بعينه ، فيطلق وصف الحر على النسب الخالص من الهجنة والعبودية

والعزة تطلق على الأسرة التى لا تغلب لكثرتها ، وانما العزة للكاثر ، كما قال الشاعر المعتز بقبيلته وقومه

والشيخ والكبير والرئيس هى كلها كلمات كانت تطلق على الأب الذى تقدم فى السن ، ثم أطلقت على كل متقدم فى جماعة من الجماعات ، حتى أطلقت على الحكيم الفيلسوف ، كما سمى ابن سينا بالشيخ الرئيس

والى العائلة يرجع الفضل فى حفظ كثير من الصناعات التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد

والى العائلة يرجع الفضل في عمل العاملين للمستقبل وسعي الانسان لما بعد حياته

وعيب العائلة فى رأى دعاة الهدم والفوضى أنهـا تحرض الآباء والأمهات على توريث الأبناء والبنات ، وقد يكون فى نظام التوريث عيب كبير أو صغير لا يستحيل اصلاحه بالقوانين وآداب الاجتماع . أما المستحيل قطعاً فهو الغـاء الوراثة من قوانين الطبيعة .. فان الأب يورث ابنه الحميد والذميم من أخلاقه ، ويورثه القوى والضعيف من وظائف بنيته ، ويورثه الصحيح والسقيم من طباعه وأعضائه ، ويورثه الجميل والقبيح من ملامحه وقسمات وجهه ، وليس من حق المجتمع أن يحرم الولد كل مايرثه من مال أبيه اذا كان المجتمع عاجزا عن حماية هذا الولد من وراثة الضعف والقبح وسوء الاستعداد ، بل ليس من مصلحة المجتمع أن يسوى بين الرجل الذى يعمـل للغد والرجل الذى يعمـل لساعته والرجـل الذى يتواكل ويتوانى ولا يعمل لغده ولا لساعته ، لأنه قانع بالعيش من معونة المجتمع وفضل احسانه

ان الهدامين المخربين سريعون الى الهـدم والتخريب لغير سبب يقنع أحدا ممن يكرهون الهدم والتخريب ، ولولا شهوة الخراب فى نفوسهم الممسوخة ، لمـا تهجموا على نظام الأسرة ذلك التهجم الذى لا يقنع أحداً بهدم جحر من جحور الحشرات. على أن التهجم فى دعوتهم الى هدم الوطن أغرب من هذا التهجم على هدم العائلة ، لأن تدبير العالم بغير أوطان مستحيل . أما تدبير المجتمع بغير عائلة فقد يتيسر الى حين

فما من وطن من الأوطان يزرع كل ما يحتاج اليه أو يخرج من المعادن كل ما يستخدمه فى صـناعاته ، وما من حكومة

تســـــتطيع أن تنفرد فى مكان واحــــد بتنظيم المحصـــولات والمصنوعات على حسب الحاجة فى كل وطن على حدة ، وما من حكومة تستطيع أن تنفرد فى مكان واحد بتنظيم مواصـــلات البر والبحر والهواء على حسب المواعيــــــد التى توافق جميع الأقطار والأنحــــاء ، فلا غنى فى نهـــاية الأمر عن الادارة الوطنية ، ولا غنى عن استقلال كل وطن بشئونه ثم اشتراك جميع الأوطان فى الشئون العالمية ، وكلما اتسع العالم تعددت فيه جوانب التخصص ، ووجب أن يختص فريق من النـــاس بكل جانب من هذه الجوانب • فلماذا نهـدم الأوطان ونحن أحوج اليها فى هذا الزمن الذى شاع فيه التخصص وتوزيع الأعمال ؟؟

يقول دعاة الهدم والفوضى ان الوطن للغنى وحـــــده وأنه لا وطن للفقير ، ويقولون ان الغرض من قوة الوطن هو حماية الدولة التى يسيطر عليها الأغنياء

ولم ينكر أحد أن الأغنياء يطمعون وأن الفقراء يهـــانون ، ولم يقل دعاة الهدم والفوضى فى اتهام الأغنياء الا بعض ما قالته كتب الدين ، ومنه ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ، ومنه أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى الى ملكوت السماوات

لم ينكر أحد هذا ولم يقل دعاة الهدم والفوضى بعض هذا ، ولكن الذى ننكره وينكره أعداء الهـــدم والفوضى هو تقبيح الوطنية على اطلاقها واقامة هذه العلاقة الانسانية ، وكل علاقة

غيرها على أساس واحد : هو أساس الفلوس ، وتوزيع الفلوس

ان فى نفوس الناس شيئا ، بل أشياء جمة ، لا تحكمها هذه الفلوس ، ومنها الغيرة الوطنية الصادقة التى تعلموا منها دروس التضحية والنخوة ، وهانت عليهم أرواحهم وأرواح أبنائهم فى سبيلها ، وليس تاريخ الانسانية تاريخ بنك أو شركة تجارية حتى نرضى بأطوار الانسانية جميعا الى توزيع الأسهم والأرباح وتدبير الحصص وأساليب الاستغلال ، ولو كان المال وحده كافيا لخلق الأوطان واقناع الناس بالتضحية لما كانت هناك حاجة ــ مع وجود المال ــ الى الايمان بشىء من الأشياء ولا احتاج الشيوعيون أنفسهم الى تسمية الحرب العالمية بالحرب الوطنية ، بعد أن جربوا حفز الهمم بمذهبهم المميت فتخاذلت فى ساعة الشدة والفداء

كلا . ليس تاريخ الأوطان تاريخ بنك ولا شركة ، وانما نرجع الى تاريخ الأوطان فنعلم يقينا أنها تقوى وتزدهر بمقدار ما فى النفوس من الشجاعة والاقدام والتضحية والصبر على الشدائد والضعف بالمعرفة والجمال ، وانما تزول الأوطان أو تقترب من الزوال كلما استسلمت للغنى والثروة وغلب فيها الترف والمتاع على الفضيلة والثبات ، تزول أو تقترب من الزوال كلما طغى فيها طمع المال على الشجاعة وقوة الأخلاق

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان الوطنية تقترن بكثير من الشرور والأخطاء ، ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان الحياة نفسها ما خلت قط ولن تخلو أبدا من شرورها وأخطائها :

ولكن من السخف واللغو أن نحكم من أجل هذا بالغاء الحياة أو الغاء الوطنية ، وأن نعتقد لحظة واحدة أن النظام الذى نستبدله بالوطنية سيأتى الينا معصوما من كل نقص مبرءا من كل عيب

يخطر لى أحيانا أن أسأل نفسى : ترى لو هبط على الكرة الأرضية نوع من الأحياء عدو للنوع الانسانى منطو على حب النكاية به وتحقير أعماله وآثاره ـ ماذا يقول عن تاريخ البشر فيما مضى غير ما يقوله الشيوعيون ودعاة الهدم والفوضى على العموم ؟ وبأى أسلوب يعبر عن حقده وضغينته على الأجيال الماضية غير الأسلوب الذى يعبر به الشيوعيون عما يسمونه تارة بالفروسية وتارة بالبرجوازية وتارة برأس المال ، وينسون أنهم يطلقون هذه الأسماء على نوع الانسان الذى ينتسبون اليه ؟

يكفى هذا السؤال ليعلم السائل والمجيب أنه يواجه أعداء الانسانية حقا حين يواجه دعاة الهدم والفوضى ، وأنهم لو كانوا نوعا غريبا طارئا على الكرة الأرضية لما كان تصويرهم للانسانية أقبح من هذا التصوير . فهم يحكمون على الانسانية حكم الأعداء ويعاملونها معاملة الخصوم البغضاء فى ميادين القتال ، ويتعقبون كل أثر من آثارها كأنهم يكرهون أن يبقى لها أثر أو يتخلف منها تراث مذكور فلا جرم يستديرون الى العقائد والأديان ليبطلوها أصلا وفصلا كما استداروا على العائلة لتمزيقها وعلى الوطن لازدرائه وتدنيسه ، وحسبهم من

العقـــائد والأديان أنها تراث انسانى ماض لتستحق منهم أن ينقلبوا عليها بالمقت والتفنيد والالغاء

ونعود فنقول ان اشتمال العقائد الانسانية في العصـــور الماضية على الخرافات والأباطيل أمر مفروغ منه بين المتدينين أنفسهم فضلا عن غير المتدينين ، ولكننا نسأل عن ألزم اللوازم الجسدية للأحياء وهو الطعام : هل خلا طعام الناس قط فى الزمن الحاضر أو الغابر من الفاسد والضار ومن الغث والتافه الذى لا يفيد ؟ هل عرف الناس حتى اليـــوم حقائق الهضم وأصول التغذية هل ينسون شهوات الذوق والطعم التى تعود عليهم بالوبال

ان سوء التغذية مشكلة الساعة فى جميع الأيام وبين جميع الطبقات ، ولم يقل أحد من أجل هذا أن الطعام باطل أصـــلا وفصلا وأن الانسانية ينبغى فى المستقبل ان تكف عن طلب الغذاء . فمن السخف واللغو أن يقال ان الضمير الانســـانى يكف عن الاعتقـــاد لأن بعض العقـــائد ممتزج بالخـرافات والأباطيل ، وليست المسألة فى طعام الجسد ولا فى طعـــام الروح ان هناك أطعمة فاسدة وشهوات جامحة ، وانما المسألة أن هناك معدة تطلب غذاء الجسد وان هناك ضميرا يطلب غذاء الروح

واذا جازت المقارنة بين خرافة وخرافة فدعاة الهدم والفوضى هم الخاسرون فى هذه المقارنة . لأن المتدينين الذين يؤمنون برب أعظم من الانســـان معذورون اذا نسبوا اليـــه الخوارق

والمعجزات . أما غير المعذورين وغير المعقولين فهم الذين يؤمنون بمذهب انسان من بنى آدم وحواء ويصدقون أنه قد نقض تاريخ العالم فيما مضى وقرر للعالم تاريخها لما يأتى من الزمن وكذلك يؤمنون بكارل ماركس ومن نحا منحاه

ان تاريخ الانسانية هو تاريخنا وليس تاريخا لنوع آخر نعاديه ويعادينا ، ومن الحق له علينا أن نتردد طويلا قبل هدمه وتقويضه ، ولو قامت الحجة القوية عليه وتواترت الأدلة على نقضه . فربما كان الخطأ فى الحجة أو كان التأنى خيرا من العجلة ولكن الهدامين المخربين ينظرون الى تاريخ الانسانية كأنه تاريخ أعداء الداء يتعقبونهم فى ميادين القتال . فالهدم عندهم هو الأصل والعفو أو الاعفاء هو الاستثناء ، ولم يكن تعجلهم الى هدم نظام العائلة ودك قواعد الوطن وتدنيس حرمات الدين منبعثا من قوة الحجة بل من سهولة الهدم والتخريب على بعض الطبائع المبتلاة بالمسخ والتشويه ، وستزول هذه الغاشية وتتحطم معاول الهدم فى أيدى ذويها ، فليس للهدامين حظ من النجاح الدائم ما دام للانسانية بناء قائم وأجل ممدود

العامل والماركسية

من الأوهام الشائعة أن الحكومة الماركسية هي حكومة العمال والصناع ، وأن العمال والصناع في البلاد الماركسية هم أصحاب السلطة في الحكومة ، وأصحاب الحق في ادارة المصانع وتوجيه النظم الصناعية ، وان نقابات العمال هي اللجان التي توكل اليها مهام النظر في مصالح الطبقات العاملة على اختلافها ، وأن العامل بعبارة وجيزة هو الحاكم المتصرف في الدولة الشيوعية ، سواء من طريق السلطة الفعلية أو من طريق السلطة بالتوكيل والانتخاب

هكذا يتوهم الجاهلون بحقائق الأحوال ، وهكذا يتخيلون النظام المزعوم على صورة هي أبعد ما تكون عن الواقع الماثل للعيان ، وأشد ما تكون عن المبادىء المقررة في أقوال الزعماء الشيوعيين

فالواقع المقرر في المذهب الشيوعي أن التعويل على النقابات مذهب مكروه عند أتباع كارل ماركس ، وأنه معطل للحركة الشيوعية التي يبشر بها هو وتلاميذه ومريدوه ، لأن التعويل على النقابية هو مذهب النقابيين والسندكاليين الذين يخالفون الشيوعية في الوسائل والغايات وينكرون الاعتماد على الحكومات جميعا بغير تفرقة بين الحكومة الموقوتة والحكومة الدائمة ، ومن الواجب في مذهب الماركسيين ان ينظروا الى نقابات العمال بعين الشك والحذر وأن يحولوا بينها وبين السلطة الفعالة في ادارة الدواوين الحكومية ، خوفا من أن

تتغلب سلطة النقابة على سلطة الحزب ، وأن يجرى العمل على مذهب النقابيين السندكاليين ، لا على مذهب الشيوعيين الماركسيين

ومن كلام « لينين » قبل الثورة الروسية ان جماعات العمال ، أو نقاباتهم ، قد ينافس بعضها بعضا ، وقد يعمل فريق منها على محاربة فريق آخر بالمناقصة فى الأجور والمزايدة في ساعات العمل ، ولهذا يجب عنده أن تكون سلطة الحزب غالبة على النقابات جميعا ، وأن يكون الرأى الأعلى للسلطة السياسية التى تتولى شئون الدولة ، ولا يكون رأى النقابات الا تابعا خاضعا لتلك السلطة السياسية

أما الجماعات أو اللجان التى يسمونها بالسوفييت فليست هى جماعت مؤلفة من العمال والصناع كما يخطر على البال ، ولكنها جماعات مختلطة من المديرين والمشرفين على المصانع والقائمين بتنفيذ المشروعات الاقتصادية ، ومعهم بعض الصناع والعمال اليدويين ممن لا صوت لهم فى أمثال هذه الاجتماعات، ويمكن أن يقال بعبارة أخرى ان جماعات « السوفييت » هى نسخة أخرى من اللجنة التى يسمونها لجنة الفابريقة أو لجنة ادارة المصنع ، وهى أشبه ما تكون بمجلس الادارة فى المصانع الأوربية التى تخضع لنظام رأس المال ، وغاية الفرق بين لجنة الفابريقة وبين مجلس الادارة فى المصانع والشركات أن الاعضاء من أصحاب الأسهم يحلون فى مجلس الادارة محل المديرين والمهندسين فى لجان السوفييت أو لجان الفابريقات ، وربما تشابهت مجالس الادارة ولجان الفابريقات تمام المشابهة ، لأن

أصحاب رؤوس الأموال فى البــلاد الأوربية والأمريكية ، يتركون العمل أحيانا للمهندسين والمديرين .

خلاصة هذا كله أن السلطة السياسية غير السلطة النقابية فى البلاد الشيوعية ، وأن العمال والصـناع لم يزالوا تابعين للساسة وكبار الموظفين فى الدولة ، وانهم مسخرون لنظـام الانتاج الذى يفرضه عليهم السياسيون وأصحاب الشـأن فى الحكومات

ومنذ قامت الثورة الشيوعية تجتمع النقابات فى ناحيـــة وتجتمع لجان الحزب المسيطرة على الحكومة فى ناحيـة أخرى ، وقاعدة النظام فى النقابات أنه اذا اجتمع فى النقابة ثلاثة من أعضاء الحزب السياسى وجب ان يرجعوا الى رئاسة الحزب فى جميع الأوامر والتعليمات ، ووجب على النقابة أن تخضع لما يمليه عليها الأعضاء الحزبيون

لهذا يقال من حين الى حين ان المؤتمر العاشر للنقابات قد اجتمع فى هذه المدينة أو تلك ، ويقال فى الوقت نفســه ان المؤتمر الخامس عشر أو السادس عشر للحزب الشـيوعى قد اجتمع قبل ذلك أو بعد ذلك ، ويتفق كثيرا أن تكون القرارات هنا مناقضة للقرارات هناك ، ولكن الرأى الأخير على كل حال لادارة الحزب فى جميع الأمور ، أما الرأى الأخير فى قرارات الحزب نفسه فهو رأى البوليس السياسى من داخـل الحزب ، بغير تعقيب ولا استئناف

ويمكن أن تعرض على مؤتمرات النقابات طلبات الزيادة فى

الأجور ، ولكن السلطة السياسية هى التى تقـــدر الأجور المختلفة وتلاحظ فى ذلك أن تختلف الأجور « أولا » باختلاف نوع الصناعة و « ثانيا » باختلاف القدرة على العمل و «ثالثا» باختلاف عدد القطع التى ينتجها العامل و « رابعا » باختلاف الأقاليم والمدن واختلاف المحصولات التى تلزم للتموين فى كل اقليم . وحجة السياسيين فى ذلك أن النقابات لا تســـتطيع الاشراف على هذه المسائل المتعددة ، وان اشرافها مقصور على صناعتها فى مدينتها أو اقليمهـــا ، فلا مناص اذن من ترك الأمر للسلطة السياسية فى تقدير الأجور

والى زمن قريب لا يتجاوز بضع ســـنوات كانت النقابات مقسمة على حسب الصناعات ، فصناع الفحم فى البلاد كلهـــا ينتمون الى نقابة واحدة ، وصناع الحديد ينتمون الى نقـــابة أخرى وصناع المنسوجات ينتمون الى نقابة غير هاتين النقابتين، وكانت لهذه الطريقة فى تأليف النقابات عيوبهـــا ومزاياها ، فمن عيوبها أنها لا تتفق على خطة واحدة ولا تجتمع على كلمة واحدة ، ومن مزاياها أنها تحصر الجهود فى الصـــناعة التى يحسنها أربابهـــا ، فتعطيهم ســـلطانا متحدا فى تدبيرهـــا والاشراف عليها

أما الطريقة الجديدة التى اختارها الســياسيون منذ ثلاث سنوات ـ فهى تسمح للنقابات المتفرقة فى كل مدينة أو كل اقليم بالاتحاد فى الادارة والتدبير ، فعمال الفحم وعمال الحديد وعمال النسيج فى المدينة الواحدة يتشـــاورون ويتداولون فى شئون هذه الصناعات جميعا ، وقد يصدر من عمال الفحم فى

هذا البلد قرار يخالف القرار الذى يتخـذه زملاؤهم فى بلد آخر .. وظاهر من هذا النظام أنه توحيد لصفوف العمال فى كل اقليم ، ولكنه فى الباطن يخالف هـذا الظاهر الخداع ، لأنه يفرق كلمة العمال فى الصناعة الواحـدة فلا تجتمع على رأى متفق في الادارة والانتاج ، ويترتب على ذلك أن السلطة السياسية تشرف على جميع المسـائل الفنية ، وأن سـيطرة الحزب السياسى تتغلب على سيطرة النقابات فى كل صـناعة متفرقة ، كما تتغلب على نقابات جميع الأقاليم

هذه الحيلة النظامية تركت لسلطان السياسيين أن يسيطروا على شئون العمـال والصناعات كما يشاءون ، فاذا اتفقت مطالب عمال الحديد مثلا فى جميع البلاد ، احتالوا على تفريقها بقرارات العمال الآخرين كعمال الفحم وعمـال النسيج .. أما اذا اتفقت مطالب الفحامين والنساجين من اقليم الواحـد فهنالك فرصة للخروج على هذه القرارات من طريق النقـابة العامة لعمال الحديد فى جميع الأقاليم

وعلى هذا بقى سلطان السياسة كما كان أمام مصلحة العمل ومصلحة العامل ، وبقيت القضية القـديمة بين الحاكمين أو المحكومين على صورة أخرى ، وبقيت هناك طبقة حاكمة لهـا خطة تحمى بها وجودها وتحفظ بها نفوذها ، ولو لم تكن فى ذلك منفعة للعمال والصناع أو منفعة للمحكومين على العموم

والواقع الذى لا شك فيه أن العمال والصناع فى البـلاد الشـيوعية مسخرون لمصلحة الساسـة أو لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وأن الأيدي العاملة لا تشتغل لكي تنتج طعامهـا

وكساءها ولوازم معيشتها ، وانما تشتغل قبل كل شيء لأنها مسخرة في سبيل السلطة الحاكمة أو في سبيل الحماية اللازمة لطبقة الحاكمين

هذه الطبقة - طبقة الحاكمين في البلاد الشيوعية - تأخذ الأقوات من أفواه العاملين لتنفقها على جيوش من الجواسيس والأرصاد ، وعلى جيوش من العساكر والضباط ، وعلى جيوش من الدعاة والمداحين

هذه الطبقة - طبقة الحاكمين في البلاد الشيوعية - تنفرد بعيشة الرخاء وتختار لنفسها ما تشاء من المساكن والأطعمة ، وتأمر وتنهى وتعز وتذل وتغدق الخير على أناس وتصب الشر على أناس آخرين ، وغايتها من كل ذلك أن تحمي وجودها وتحفظ نفوذها وتقطع الطريق على كل منافسة تخشاها ، ولو هلكت الأيدي العاملة وطال عليها عهد التسخير والتضليل

ولم يحدث قط في التاريخ أن سلطانا غاشما مستبدا أنفق من الأموال على السلاح والجاسوسية ، ما ينفقه هؤلاء الطغاة المستبدون في بلاد الشيوعيين

ألوف الألوف من الضباط والجنود · ألوف الألوف من الدعاة والجواسيس · ألوف الألوف من المدافع والدبابات والسفن والطيارات ، وكل ذلك لتسخير العمال والصناع في سبيل طائفة من الحكام وأصحاب السلطان ، ويعرف هؤلاء الحكام أن هذه الأموال الضائعة ثقيلة الوطأة على أعناق العمال المكدودين والصناع المجهودين ، فيشغلونهم بالمنازعات

الدولية ، ويخدعونهم بالفتن العالمية ، وينشرون الفوضى هنا، ويلهبون نيران العداوة هناك · ولا يتركون الأمم لحظة واحدة فى سلام ، ليخيفوا رعاياهم من خطر الحــرب ، ويدخلوا فى روعهم أنهم مهددون بالهجوم عليهم من كل جانب ، وأن تبذير الأموال على التسليح والتجنيد ونشرالدعوة وبث الجواسيس- كل أولئك ضرورة لازمة لاتقاء تلك الأخطار واتخـــاذ الحيطة لأولئك الأعداء

تلك هى حقيقة الأحوال فى بلاد الشـــيوعيين : ســلطة سياســـية تستعبد الأيدى العاملة وتسخر الصناعة كلهـــا لحماية وجودها وتمكين ســـلطانها · وأين العمال ونقـــابات العمال ؟·· لا صوت ولا حركة · لأن صـــوتها ضائع بين مجالس الحزب ولجان السوفييت ومكاتب الفابريقات · ومما لا ريب فيه أن العمال فى بلاد العالم قاطبة أرفع صوتا وأوفر حرية من زملائهم فى بلاد الشيوعيين · وهى هى البلاد التى يصول فيهـــا الحاكمون باسم العمال المظلومين · وصـــدق أبو العلاء ، حين قال قبل ألف سنة :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وهكذا يرجعون الى الوراء ، باسم التقـــدم والارتقاء ، ولا تقدم هناك

الحرية والإذاعة

نعنى بالاذاعة كل وسيلة من وسائل النشر على اختلافها ، ومنها ـ بل أهمها بالبداهة ـ وسيلة الاذاعة اللاسلكية أو الأثيرية التى تسمعونها الآن

فهل هناك علاقة وثيقة بين الحرية والاذاعة على اختلافها ؟

الجواب السريع نعم ، والجواب بعد طول الروية والأناة نعم أيضا . لأن العلاقة وثيقة بين الاستبداد والحجر على الأقوال والأفكار والحرص على التستر والكتمان ، وبقدر الصلة بين الاستبداد والكتمان تكون الصلة بين الحرية واذاعة الأخبار والأفكار

وفي وسعنا أن نراجع تاريخ الانسانية منذ القدم ، فنرى أن كل خطوة فى طريق الاذاعة كانت كذلك خطوة فى طريق الحرية ، كأن الحرية والاذاعة مظهران متلازمان ، لحركة واحدة من حركات التطور والارتقاء

كان الكتمان شديدا يوم كان الاستبداد شديدا فى العصور الأولى ، فكانت الكهانة السرية تتسلط على ضمائر الناس من طريق العقيدة الدينية ، وكانت السياسة فى جملتها سرا من أسرار الملوك والحكام ، وقد يتفق أحيانا أن يجتمع سر الكهانة وسر الدولة عند شخص واحد ، بل يتفق أحيانا أن يكون السيد الحاكم الها يعبده المحكومون ، ولا يسألونه عن صنيعه بهم وبالدولة ، لأنه سر يعنيه وحده ولا يجوز لهم أن يعرفوه

ولم يزل هذا شأن الناس في حريتهم الدينية وحريتهم ،

السياسية حتى ظهرت أول وسيلة من وسائل التسجيل والاذاعة ، وهى الكتابة على الورق . فازداد نصيبهم من الحرية بمقدار نصيبهم من الكتابة ، واطردت هذه الزيادة جيلا بعد جيل .

الا أن هذه الوسيلة ـ وسيلة الكتابة ـ كانت محدودة الأثر عند نشأتها الأولى ، وظلت محدودة الأثر زمنا طويلا من فجر التاريخ الى العصور التاريخية المعروفة . لأن الكتابة كانت محصورة بين عدد قليل من المحكومين بالنسبة الى الأميين ، ولأن الكتابة كانت فى تلك الأزمنة تنقسم الى طريقتين : طريقة الكتابة المقدسة أو الكتابة الرسمية وأكثرها ألغاز ورموز لا يفقهها غير النخبة المعدودة من الكهان والحكام، وطريقة الكتابة العامة وهى الطريقة المباحة لسائر الطبقات والأفراد ، فلم تكن معرفة الكتابة العامة من وسائل الاطلاع على الأسرار والخفايا ، وظلت هذه الأسرار والخفايا محجوبة عن الأمم حتى شاع فيها الايمان بالأديان الكتابية ، فارتفع الحجاب عن كثير من المؤمنين بهذه الأديان

على أن الشعوب التى عرفت طريقة للنشر والاذاعة غير الكتابة كانت تنعم بنصيب من الحرية أكبر وأوسع من نصيب الأمم التى عولت على الكتابة وحدها ، فكانت قبائل العرب تحفظ القصائد الشعرية المنظومة فى المسائل العامة ، وكانت ـ مع انتشار الأمية بينها ـ تملك حريتها ولا تخضع لسلطان غير سلطان العرف والعادة الذى يخضع له كبارها وصغارها ، وكذلك كانت قبائل أخرى كقبائل اليونان فى أوربة . فأخذت

هن الحرية بمقدار ما أخذت من الاذاعة ، وقل فيها الأستبداد بمقدار ما قل فيها الحجر على الأخبار والأقوال

وتمضي الشعوب الانسانية على هـذا النهج عدة قرون : خطوة في طريق الاذاعة تقترن بها خطوة في سبيل الحرية • حتى ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر ، وهي أقوى وسيلة من وسائل النشر بعد اختراع الكتابة على الورق • فاذا بالخطوات في سبيل الاذاعة والحرية تتلاحق سراعا تباعا ، وتتحطم أمامها حواجز الاستبداد حاجزا بعد حاجز ، فلم ينقض قرن واحد حتى عمت الدعوة الى اصلاح الحكومة تارة مع الثورة الانجليزية وتارة مع الثورة الفرنسية • وعجل ابتداع الصحافة بحركة الاصلاح فأصبح انتشارها بين الشعوب مقياسا لانتشار الحرية فيها ، وشوهدت هذه الظاهرة الشاملة ـ ظاهرة اقتران الاذاعة بالحرية ـ على نحو لم يسبق له مثال في الأزمنة الماضية • فبلغ الناس من حرية القول والفكر في مائة سنة ، ما لم يبلغوه من قبل في عدة مئات

كانت « السرية » أو الكتمان الشديد مبدأ متفقا عليه معترفا به ، في السياسة الدولية • وكانت الشعوب من جانبها تسلم هذا المبدأ ولا تطالب الساسة بشيء من الاعلان والصراحة فيما يجري بينهم من المخاطبات أو الاتفاقات ، ودامت الحال على ذلك خلال القرن التاسع عشر الى مقربة من منتهاه ، ولكن هذا المبدأ المتفق عليه لم يلبث أن تزعزع من شتى الجوانب بعد انتشار الصحف واقبال الجماهير على مطالعتها : تزعزع هـذا المبدأ من جهة لأن الصحف كانت تتسابق الى التقاط الأخبار

الخفية واستنباط الحقائق المكتومة ، فأصبح من المتعذر على الساسة أن يكتموا خبرا من الأخبار ويحافظوا على كتمانه الى زمن طويل ، ثم تزعزع مبدأ السرية لسبب آخر أهم من هذا وأعمق فى آثاره ونتائجه ، وهو اشتراك الجماهير فى معالجة الشئون الدولية والوقوف على خباياها ، فانتهى العهد الذى كانت فيه سياسة الدول حكرا فى أيدى الساسة يصرفونه كما يصرفون مصالحهم الشخصية وأعمالهم الخاصة ، وأحس هؤلاء الساسة بالحاجة الى افهام الجماهير واقناعها بصواب الخطط السياسية التى يفرضونها عليهم ، وقد ينتهى بعضها الى إقحام الأمم فى الحروب وتحميلها نفقات القتال ، فلا أقل من اقناعها بضرورة هذه المخاطر ولزوم تلك النفقات

لقد كانت الصحافة خطوة واسعة الى قبلة الحرية ، لأنها هى خطوة واسعة من خطى النشر والاذاعة

لكن الاذاعة الصحفية من الوسائل التى تخضع لسيطرة الحكومات المستبدة . ففى وسع الحاكم المستبد أن يفرض الرقابة عليها داخل بلاده ، وأن يمنع الصحف الخارجية أن تصل الى رعاياه ، فيبطل حقوق الحرية التى تقترن بالاذاعة الصحفية ، وقد حدث ذلك غير مرة فى العصر الأخير

ويبدو من تطور الأحداث التاريخية أنها تتجه الى وجهة الحرية والنشر ، وتستعصى على الحجر والتقييد . فلم يبدأ القرن العشرون حتى أقبل على العالم بوسيلة جديدة من وسائل الاذاعة وهى هذه الاذاعة الأثيرية . والنسبة بينهما

وبين الصحافة فى النشر ، كالنسبة بين المطبعة ونقل الكتابة بالنسخ والرواية • فهى أقوى من الاذاعة الصحفية وأعسر منها على من يحاول تقييدها ، ولا سيما التقييد الذى يحتاج الى الاتفاق بين عدة حكومات أو عدة بلاد

ان الاذاعة الأثيرية أقوى من الاذاعة الصحفية ، لأسباب متعددة

من هذه الأسباب أنها أسرع انتقالا بين جوانب الكرة الأرضية ، فهى لا تنتظر البريد ولا تتوقف على السفر بالسفن أو الطيارات

ومن هذه الأسباب أنها تصل الى من يعرف الكتابة ومن لا يعرفها ، فلا حاجة بالسامع الى أكثر من ادارة المفتاح الى الصوت فى اللغة التى يفهمها ، وقد تصل اليه الأخبار والأحاديث بعدة لغات .

ومن هذه الأسباب ان جهاز الاذاعة يوضع فى البيوت والحجرات حيث تعجز الرقابة الحكومية عن الوصول الى مستمعيه ، فلا يتأتى منع الأخبار التى تتسرب من خارج البلاد ولو كانت الحكومة القائمة تقاومها وتحجر على جمهرة المستمعين أن تصغى اليها

ومن المفهوم أن الحجر على الاذاعة الأثيرية ليس بالأمر المستحيل ، ولكنه ـ اذا أمكن ـ فهو ممكن بصعوبة شديدة بالغة فى الشدة : ممكن حين تلجأ الحكومات المستبدة الى اطلاق

الجواسيس والعيون فى كل بيت وفى كل مسكن • وممكن حين تعمد الحكومات المستبدة الى تسخير الابن فى التجسس عـــلى أبيه وأمه وتسخير الزميل فى التجسس عـــلى زميله • ومتى اضطرت الحكومة المستبدة الى ذلك فهي في مأزق وعر لا تقوى حكومة من حكومات هذا الزمن على الثبات فيه : مأزق يكلفها الكثير من المال ، ويكلفها الكثير من الأعوان والأتباع ، ويكلفها الكثير من أساليب الخـــداع والاقناع ، ويرهقها كما يرهق رعاياها بالجهد المضنى والنفقة الثقيلة والحجر على الحـركات الاجتماعية والفردية وليس الحكم على هـــذه الأوضاع الشاذة مما يطيقه الحاكم أو المحكوم فترة طويلة من الزمن ، فلا مناص له من التعثر والاعياء ثم الزوال القريب •

ومن أساليب الحجـــر على الاذاعـــة التى تتبع فى البلاد الشيوعية أن تفرض على الشعب أجهزة مقصـــورة على نقل الاذاعات المحلية دون غيرها ، وهنا يسوء الظن بجميع الاخبار المذاعة حتى يتساوى الصـــدق والكذب عند سامعيها ، وهى حالة مريبة لا تحمد مغبتها طويلا اذا أمكن أن يحمدها الشعب بعض حين •

من هذا العرض التاريخى السريع يبدو لنا أن كل خطوة فى سبيل النشر والاذاعة تقترن بخطوة مثلها فى سبيل الحـرية ومعرفة الحقوق الانسانية ، وأن الخطوة هنا على قدر الخطـوة هناك ، واننا قد خطونا فى عصر الاذاعة الأثيرية أوسع هـــذه الخطى وأصعبها على المراقبة والتقييد ، فان لم يكن الحجر عليها مستحيلا فهو من أشق الممكنات وأعسرها على المستبدين ، ولئن

يصبر الحاكم المستبد طويلا على هذه المشقة حتى تسومه ما لا طاقة به من ضروب الحيرة وعوامل العجز والاخفاق .

ولو كان عمل النشر والاذاعة مقصورا على هذا لكان عملا قوى الأثر فى تعميم الحرية ومقاومة السلطة المستبدة ، ولكنه فى الواقع يخدم الحرية فى نطاق أوسع من هـــذا النطاق : يخدمها لأنه يعود الناس أن يسمعوا الرأى ونقيضه ويقابلوا بين الخبر وما يخالفه أو يدحضه وينفيه ، وانما تضيق صدور الناس اذا تعودت أن تسمع من جانب واحد وتتجه الى وجهة واحدة . فاذا تعودت السماع من جوانب شتى فقــد تعودت السماحة فى الرأى والصبر على المخالفة وراضت النفس على حرية الموافقة والمعارضة ، فعاشت فى جو من الطلاقة يتسع لمختلف الاراء .

ان فى عصرنا هذا كثيرآ من نذر الشر والبلاء ، فاذا أردنا أن نقابلها ببشائر الخير ففى طليعتها أننا نعيش فى عصر النشر والاذاعة ، وهو مقدمة لا غنى عنها لعصر الحرية والسماحة . فقلما يدوم الاستبداد حيث تتفتح الأسماع ، وتتفتح معهــا الأبصار والأفكار .

الشيوعية والإسلام

كلمة الشيوعية ترجمة عربية لمذهب « كارل ماركس » فى حالة التطبيق • لأنه يزعم أن مذهبه ينتهى الى اباحة كل شىء على الشيوع أو بالمشاع ، ولكن أصحاب المذهب جميعا يسمونه بالمادية التاريخية أو المادية الثنائية الحوارية تمييزا له عن جميع مذاهب الاجتماع والفلسفة ، وعنوانه هذا هو خلاصة كافية لقواعده التى يقوم عليها : وهى الايمان بالمادة دون غيرها وانكار كل ما عداها من عالم الغيب أو عالم الروح •

ومن البديهى اذن أن المذهب ينكر الأديان ويكفر بجميع الأنبياء والرسل ، ولا يدع أصحابه هذه الحقيقة للفرض والاستنتاج بل يصرحون بعقيدتهم ويقولون عن الدين أنه « أفيون الشعوب » لأنه يخدر أتباعه بالأمل فى الآخرة فلا يطلبون الانصاف ولا النعيم فى هذه الدنيا •

وهم يسوون بين الأديان جميعا فى هذه الصفة ، وقد حاربوا المسيحية والاسلام والصهيونية حربا عنيفة ، فى مبدأ قيام الثورة الروسية ، ودأبوا على معاداتها وتعطيلها الى أيام الحرب العالمية الثانية التى اضطرتهم الى الاعتراف بقوة الدين فى تثبيت العزائم والاستخفاف بالخطر فصالحوا رجال الدين وعاهدوهم على تبادل المعونة وكفوا عن حملتهم على العقائد الدينية الى السنة الماضية ، ثم بدا لهم أن الشعب الروسى يثوب الى التدين ويندفع الى معاهد العبادة فجددوا تلك الحملة وعادوا الى ادارة المتحف الذى أنشأوه من قبل باسم « متحف

الدين والالحاد » وخصصوه لنشر المساوىء التى تنفر الناس من الايمان بالله ٠

الا أن الشيوعية قد تصبر على المسيحية ولا تطيق الصبر على الاسلام الا ريثما تتحفز له وتغل أيدى أتباعه عن المقاومة٠ لأن المسيحية دين العديد الأكبر من الروسيين والشعوب التى تدخل فى حوزة الدولة الروسية ، ولأن المسيحية من الجهة الأخرى تدع شئون الدولة للدولة ولا تتعرض للنظم الاجتماعية أو لاقامة المجتمع على أساس جديد ٠ وقد نشأت المسيحية كما هو معلوم فى بلاد تخضع للسلطة الرومانية فى الشئون الدنيوية ولسلطة الهيكل الاسرائيلى فى الشئون الدينية فاجتنبت نقض « الناموس » وأوصت باعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ٠

أما الاسلام فهو نظام اجتماعى له منهجه فى علاج المسائل التى تتصدى لها الشيوعية ، وهو يواجه مشكلة الفقر بحلوله المتعددة ولا يقصر مواجهتها على فرض الزكاة لمستحقيها كما يسبق الى الظن لأول وهلة ٠ اذ هو ينكر الاسراف والترف والاحتكار ويأبى أن تكون الأموال « دولة بين الأغنياء » ولا يصدق عليه قولهم انه أفيون الشعوب لأنه يأمر المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا ويحثه على دفع المظالم ومنع الشرور ، ويعلم المسلم ان يقدس الحرية ويثور على المذلة والاستعباد فلا يتسنى للحاكم الأجنبى أن يخضعه لغير معتقده أو يسومه الهوان فى أمور الدنيا والدين ٠

لهذا وصفوه في دائرة المعارف الشيوعية بالرجعية وتأييد الاستغلال وحاربوه بكل وسيلة من وسائلهم الظاهرة والخفية لاضعاف سلطانه الروحي وتشتيت المسلمين وتمزيق كل وحدة تجمعهم فى البلاد التي يحكمونها وهدم المعالم الدينية في جميع تلك البلاد .

والمسلمون التابعون للحكومات الشيوعية يعلمون حق العلم عداوة الشيوعية لدينهم وسعيها الحثيث فيطمس معالمه وأركانه ويعرفون حقيقة ما يذاع عن حرية المعتقدات بين الشعوب التى يسيطر عليها الروسيون ، ولكن المسلمين فى كل أرض يستطيعون أن يعرفوا هذه الحقيقة من عدد الحجاج الذين تسمح لهم الحكومة بأداء الفريضة كلما سمحت لهم بذلك من حين الى حين . فانهم على قلتهم يحاطون بالرقابة الشديدة بينهم ومن حولهم ولا يؤذن لهم بالتحدث الى غيرهم فى أمر من أمورهم الدينية أو الوطنية .

والكلام المكتوب يكشف من أسرار الدعوة الشيوعية كل ما تحاول ستره والمغالطة فيه . فان المسلمين فيحوزة الشيوعية قد حرمت عليهم كل رابطة يرتبطون بها غير قيود الحكم الروسى وثقافة اللغة الروسية . فلا جامعة اسلامية ولا جامعة طورانية ولا قراءة للغة العربية ، ومن يشتغل بشيء من ذلك يتهم في اخلاصه للدولة ويعامل معاملة الجواسيس المسخرين للائتمار بها والثورة عليها .

فصحيفة الدولة « برافدا » تعلن فى عددها الصادر بتاريخ

٧ أكتوبر سنة ١٩٥٢ من مقال رسمي نشرته على الصفحة الرابعة أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي منعت « سموم الجامعة الاسلامية » التي يروجها كتاب من قبيل الكتاب المسمى ديد كركوت » عن أذربيجان •

وقد شنت صحيفة الدولة هذه حملتها الشعواء على المؤرخ القاجاتي « سليمانوف » في مقال نشرته في الثالث عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٣ لأن هذا المؤرخ تكلم عن الثقافة التركية المشتركة بين الشعوب الطورانية ، وأوعزت الحكومة الى ذنب من أذنابها المسمى يوسبوف لينفي وجود وحدة ما بين الترك في آسيا وينادي بانفصال كل شعب منها عن سائرها في شئون الثقافة ولا سيما الازبكيين • وقد أعلنت صحيفة « أزفستيا » قبل ذلك (في الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١) حملة كهذه على مجمع العلوم بازبكستان لأنه يجنح الى احياء تراث الاسلام ، وحملت هذه الصحيفة نفسها (في السادس من شهر يونيو سنة ١٩٤٩) على أمم آسيا الوسطى لولعها بالمخطوطات العربية الرثة وغلبة النفور الثقافي العربي على أدبائها وعلمائها ولا يمكن أن تكتب صحيفة من الصحف الروسية حرفا واحدا عن الثقافة العامة بغير علم الحزب وايعازه وتكليف الحكومة واشرافها ، وبخاصة حين يمس الرأى أمما ترسم لها سياسة مقررة في جميع هذه الشئون •

وهؤلاء الذين ينادون بهدم العصبيات الوطنية ينعون عليها في حالة واحدة وهي حالة الأمم التي تنهض للاستقلال عن الدولة المسيطرة عليها • أما عصبية القومية الروسية واللغة

الروسية والثقافة الروسية فهى مفروضة على أبنائها وغير أبنائها من عبيد الكرملين « المتحررين » من ربقة الأسلاف الرجعيين ، وقد وقف باجيروف عضو لجنة الحزب خطيبا من الخطباء المقررين فى مؤتمره التاسع عشر ليحمد الفرصة السعيدة التى أنقذت المسلمين على أيدى القياصرة بضمهم الى الحظيرة الروسية الواسعة ، ولم ينس أن يقول أنه لا يحمد القياصرة ولا ينكر مساوئهم ولكنهم ولا ريب قد يسروا لشعوب المسلمين فرصتها الوحيدة بالدخول فى زمرة الروس والاستعداد للتقدم بفضل اللغة الروسية •

ان عداوة الشيوعية للاسلام عداوات متكررة وليست بعداوة واحدة • فانها تعاديه معاداة الخوف من منافسته فى تنظيم المجتمع على قواعده وأحكامه ، وتعاديه معاداة الحاكم الروسى للمحكوم المطموع فى ماله واستقلاله ، وتعاديه أخيرا معاداة الشعور بالخطر والافلاس على اثر اخفاق التجارب الماركسية واحدة بعد الأخرى خلال السنوات الأخيرة •• فقد اعترفت الدولة على كره بحق الملك والتوريث ، واعترفت بالفوارق بين الأجور وأحوال المعيشة ، واعترفت بفصل الجنسين فى معاهد التعليم ، واعترفت بالأسرة ومواثيقها وبالوطنية وقوتها الفعالة فى الدفاع عن الأمة والارتفاع بها الى مطامحها العليا •

فى مثل هذه الحالة يشعر الأقطاب الشيوعيون بتقدم الاسلام وتقهقر المادية الماركسية ويعلمون أن النزاع المقبل انما هو نزاع بين ما يسمونه « الايدلوجى » الماركسى والايدلوجى الاسلامى •• اذ ليست الديمقراطية دينا ينازع الشيوعية فى

ميدانه . وغاية ما يرجى منها أنها دعوة مانعة لسوء الحكم ومانعه للحجر ومانعة للقيود الجائرة فى تقسيم الأعمال والأرزاق ، وأما التطبيق « الايجابى » فليس من رسالة الديمقراطية فى عصر من العصور ، ولكنه من رسالة الاسلام بغير جدال فى هذا الزمن على الخصوص . لأنه زمن يتقدم فيه المسلمون ويتعلمون فيه كيف يطبقون الاصلاح الاجتماعى موفقا بين مطالب المادة ومطالب الروح ومقتضيات العلم الحديث .

ولا هوادة فى هذا النزاع ، ولا يبغض الشيوعيون بين أمم الشرق الآسيوى نفوذا روحيا أو فكريا أخطر عليهم من نفوذ الاسلام ، وعدة أبنائه تناهز فى القارة الآسيوية ثلثمائة مليون .

هذه حرب حياة أو موت ، وقد عاش الاسلام وماتت عداوات كثيرة ناصبته الحرب منذ مئات السنين ، وسعيش مئات السنين والشيوعية وأمثالها فى خبر كان .

القرم الاسلامية والمذاهب الهدامة

نشأ كارل ماركس امام الشيوعية من سلالة اسرائيلية ، وكان أجداده لأبيه وأمه كهانا متعصبين لعقيدتهم ، غالين فى رعاية شعائرهم ، ولكن أباه أرتد عن دينه الى المسيحية على غير اعتقاد أو رغبة صادقة فى الايمان بدينه الجديد ، بل كان ارتداده احتيالا للكسب وتطلعا الى الوظائف العامة ، ولا شيء غير « الانتهاز » والاتجار بالضمير .

ويتبين من تاريخ المذاهب الهدامة كلها أنها تعتبر هذا الاتجار بالضمائر وسيلة من وسائلها المشروعة لخدمة المطامع الشخصية أو الخدمة السياسية العامة فى الدولة ، فهى تنادى « بالمادية » وتنكر كل شيء فى الوجود غير المادة وتسمى الأديان « أفيون الشعوب » لأنها تبشر بعالم الروح وتخدر شعور الفقراء كما يزعم الشيوعيون ، فيتعللون بالنعيم الأبدى ولا يثورون طلبا للنعيم فى حياتهم الأرضية !

ولا يهمنا هنا أن نعرض لسخافة الدعوى التى تفسر كل شيء بالمادة وهي ـ أى المادة ـ سر غير معروف ولم يره أحد بعينيه كما تقرر فى العلم الحديث .

ولا يهمنا كذلك أن نعرض لسخافة القول باختراع الأديان لتخدير الفقراء مع أن الايمان بالدين بين الأغنياء وأصحاب السلطان لا يقل عن الايمان به بين الفقراء والمسخرين .

---

(١) مقدمة كتاب القرم الاسلامية .

ولكن الذى يهمنا هو اتجار القوم بالضمير فى مسألة الدين واتخاذه ذريعة مكشوفة للاحتيال على المصالح السياسية ، فان الزعماء الماركسيين الذين هدموا البيع والمساجد واعتقلوا القساوسة والرهبان بجزيرة « سفيتسكى » الجهنمية وجعلوا الصلاة شبهة تثبت على صاحبها الخيانة والتآمر على الدولة ـ عادوا فى ابان الحرب العالمية فاحتاجوا الى اثارة النخوة فى جنودهم ووجدوا أن المبادىء الشيوعيةهى التى خدرتهم وأماتت فيهم الهمة والشجاعة ، وأن « أفيون الشعوب » هو الذى يثير النخوة ويبتعث الهمة ، فتملقوا رجال الدين وأذاع ستالين فى الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣ بلاغا يقول فيه : « ان الحزب الشيوعى لا يسعه بعد ما بدا من وطنية رجال الدين فى صفوف القتال أن يحرم الروسيين بعد الآن من حرية الضمير أو حرية الاعتقاد .. »

هذه اللعبة السياسية المكشوفة لم ينخدع بها أحد من الروسيين ولا غير الروسيين ، ولا سيما الشعوب الاسلامية التى أنصب عليها القسط الأوفر من الاضطهاد بجميع أنواعه وألوانه ، لأنه الاضطهاد الذى يصبه عليهم من يتعصب للمادية الشيوعية ومن يتعصب للعقيدة الدينية ومن يتعصب للقومية الروسية ويعتبر التكلم بلغة غير اللغة الروسية ثورة على الاستعمار وثورة على نظام الحكم القائم فى أيدى الشيوعيين .

وسيطلع القارىء العربى فى كتاب « كارثة القرم » على طرف موجز من تلك الفظائع الوحشية التى حلت بأولئك المساكين لغير ذنب الا أنهم يدينون بشريعتهم ولا يدينون بالشريعة

الماركسية ، ويتكلمون بلغتهم ولا يتكلمون باللغة الروسية ، وايعرفون لهم حقوقا من حرية الضمير يعترف بها حكامهم قولا ويعاقبونهم عليها فعلا أشد العقاب •

واذا كانت الحرب قد ألجأت أولئك الحكام الى مجاملة الرعايا المسيحيين فهى على عكس ذلك قد وضعت المسلمين الخاضعين للكرملين موضع التهمة والاشتباه ، خوفا من ثورتهم وانتقاضهم لما أصابهم من ضروب المظالم التى تقشعر لهولها الأبدان •

لقد استباحوا المساجد واتخذوا منها مسارح للهو أو اصطبلات للخيل أو حظائر للأغنام ، وجمعوا نسخ القرآن والأحاديث النبوية وأحرقوها فى الميادين العامة ، وبطشوا بكل من يتوقعون منه المقاومة ونكلوا بالشبان الأقوياء ونشروا الخوف والفزع بين العاملين والفلاحين فاقفرت الديار وأجدبت المزارع وعمت المجاعة واشتدت قسوة الجوع على الناس حتى أكلت الأم ولدها وهى تبكى عليه،ثم نظروا شزرا الى المحسنين الذين خفوا لانقاذ المنكوبين فاتهموهم بالادخار والوقوف من السلطة موقف « المتحدى » الذى يأخذ بأيدى ضحاياها ، فقتلوهم لأنهم يطعمون الجياع ويعطفون على الآدمية أن يمسخها الجوع مسخ الضوارى والسباع !

ولو كانت المادية الماركسية تبقى فى الآدمى مسحة من الانسانية لرثى المسيطرون لأولئك المنكوبين رثاء الانسان للانسان • ولكن الانسانية كلمة لا معنى لها فى شريعة الماركسية ، لأن الشريعة عندهم هى شريعة « الطبقة » المزعومة فكل من عارضها فهو خارج من زمرة البشر مستباح الدم

والدمار كما يستباح الوحش أو يستباح البهيم .

وليس قداسة « البابا » حبر الكنيسة الكاثوليكية مسلما تجمعه بالقرميين جامعة الدين ، ولكنه انسان يحفظ للانسانية حقها من الرحمة كائنا ما كان الدين الذى تنتمى اليه ، ولهذا عطف قداسته على ضحايا القرم المسلمين فأرسل اليهم المعونة من الطعام والدواء ، وان لم تمكنه أحوال الدول من بذل المعونة السياسية لتلك الشعوب المظلومة ، فاستحق الشكر الجزيل من أبناء القرم جميعا وسجلوا له شكرهم فى هذه الصفحات .

وماذا يردع الطغاة المسلطين على ضحاياهم تلك أن ينكلوا بها غاية ما فى وسعهم من نكال القوى بالضعيف ؟ هل تردعهم عن ذلك عقيدتهم الشيوعية ؟ هل تردعهم عنه أواصر القومية والوطنية ؟ هل تردعهم عنه طبائع الهمجية التى ركبت فيهم من قديم الزمن ؟ هل تردعهم عنه شناعة السمعة فى بلاد العالم وقد عزلوا ضحاياهم عن العالم كله من جميع منافذه ونواحيه ؟ لا شىء من هذا يردعهم عن الفرائس العزلاء الملقاة بين أيديهم والموكولة الى رحمتهم ولا رحمة عندهم فى طباع الهمجية ولا فى تعاليم الماركسية ، فما أشقى المساكين الذين حاق بهم ذلك العذاب ولا منقذ ولا حامى ولا معين .

انه عذاب لا حد له ولا غاية ، فان كانت مصيبتهم العظمى مصيبة الفداء الذى يفتح أعين الغافلين الى مصير البشر على أيدى هؤلاء الزعانف الذين حسبوا أن كلمة « الشيوعية » تشفع للآدمى فى نكسته الى الوحشية فقد حملوا وحدهم ضريبة الفداء لانقاذ البشرية من ذلك البلاء ، ولعله انقاذ قبل فوات الأوان .

الأدب والمذاهب الهدامة

من العناء الضائع تعريف الأدب على صورة من الصور للاعتراف بنوع من الأدب وانكار نوع آخر . فما من تعريف سمعناه الا وهو يسمح لكل أدب أن ينطوى فيه .

يقال مثلا أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، أو يقال انه ظاهرة اقتصادية أو ظاهرة بيولوجية،أو غير ذلك من الظواهر المختلفة ولك أن تقول عن ظاهرة من هذه الظواهر أو عنها جميعا : حسن ثم ماذا ؟ فلا يسع صاحب التعريف أن ينتهى بك الى باب مغلق على نوع من أنواع الآداب .

ذلك أن الأدب كالحياة لأنه تعبير عنها، فلا يستوعبه مذهب ولا يستغرقه أسلوب .

قل مثلا ان الأدب ظاهرة اجتماعية ، فماذا فى هذا ؟

ان المجتمع لا يستنفد أغراضه ومقاصده فى أربع وعشرين ساعة ، ولا فى سبعة أيام ، ولا فى عام أو بضعة أعوام .

ومن الجائز أن ظاهرة اجتماعية تتحقق خلال خمسين سنة ، وتبدأ فى هذه السنة وكأنها معزولة عن المجتمع أو مناقضة لمصالحه الظاهرة ، ولكنها بعد خمسين سنة تؤتى ثمراتها التى لا نعرفها اليوم ولا نعرف سلفا كيف تكون .

وليس أضر بالمجتمع مثلا من قطع النسل ، ولكن الكاتب قد يشجع العزوبة فى قصة يكتبها ، وقد يكون تشجيعه لها احتجاجا على نظام الزواج فى المجتمع ، وقد يؤتى هذا الاحتجاج

ثمرته بعد سنوات ، فيصبح على هذا الاعتبار أن يكون تشجيع العزوبة ظاهرة اجتماعية ودليلا على مرض اجتماعي يحتاج الى العلاج .

فاذا قلنا أن الأدب مسألة اجتماعية فما الذى أبحناه بهذا التعريف ؟ وما الذى حرمناه ؟

بل أنت مستطيع أن تشيد بالأدب الذى يسمونه أدب البرج العاجى ولا تخرج به عن الأدب الذى هو مسألة اجتماعية .

فاذا جاز فى المجتمع أن تغرس حديقة للنزهة لا تزرع فيها القمح والشعير ولا تغرس فيها التفاح والكمثرى فقد جاز فى هذا المجتمع نفسه أن تنظم الشعر وصفا للازهار والبساتين .

واذا جاز فى المجتمع أن تنشىء مصلحة للآثار لا تبيع تحفها ولا تساوم عليها فقد جاز فى هذا المجتمع نفسه أن تصف أبا الهول بمقال أو عدة مقالات ، وجاز فيه أيضا أن تحكى تلك الآثار بصناعة الصور والتماثيل .

ومن السخف أن يقال ان الطبقة الحاكمة هى التى تنحرف بالأدب عن خدمة المجتمع لخدمة مصالحها ومآربها . وان الأمر لو وكل الى الشعب لما نظم أحد شعرا ولا كتب حرفا فى غير القوت والكساء والدواء وما يلحق بهذه الاشياء .

فقد عرفنا الأدب الشعبى بمصر سبعة قرون متوالية ، فلم نعرف فيه هذه الشروط ولا تلك الموانع ، ولم نعرف له صبغة

عامة غير الصبغة الانسانية التى تعم جميع الطبقات فى جميع الأوقات .

على أى موضوع كان الأدب الشعبى يدور بمصر منذ القرن السادس للهجرة ؟

انه كان يدور على ملاحم أبى زيد الهلالى والزناتي خليفة والزير سالم وسيف بن ذى يزن وغيرهم من أبطال هذا الطراز

وقد اختلفت الهيئة الحاكمة خلال هـذه القرون من الدولة الفاطمية الى الأيوبية الى دول المماليك الى الدولة العلوية .

واختلفت الأحوال الاقتصادية من رواج النقل فى تجارة المشرق والمغرب الى انقطاع الصلة بينهما الى نشأة الزراعة القطنية الى تجدد المعاملات التجارية بين القارات الشرقية والغربية .

وفى جميع هذه القرون كانت قصة أبى زيد هى هى ، وقصة الزير سالم على نسختها الأولى ، وقصة الذوين والتيابعة مسموعة في القرن الثالث عشر كما كانت تسمع قبل ذلك بثلاثة أو أربعة قرون .

وهذا هو رأى الشعب فى الأدب الشعبى ، لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة لأن هذه الطبقة الحاكمة كانت تجهل اللغة التى نظمت بها قصائد السيرة الهلالية وما شابهها ، ولأن قبائل بنى هلال وبنى تغلب وبنى من شئت من الآباء لم يكن لهـا سلطان على الدولة الحاكمة ، ولا كانت الدولة الحاكمة معتزة بهم او جارية فى نظام المجتمع على مثالهم .

فلماذا أقبل الشعب على تلك الملاحم يسمعها ولا يمل سماعها سبعة قرون أو تزيد ؟

واذا كانت الأفلام والروايات المسرحية فى قبضة المخرجين وكان المخرجون فى قبضة رأس المال فشاعر الربابة الذى تسخره عشرة دراهم من العشاء الى مطلع الفجر تراه فى أى قبضة كان ؟ .. وما هى المناورات المصرفية أو البرجوازية أو الحركية أو الاستراخائية التى كانت تدبر من وراء الستار لصرف الشاعر عن الكلام فى الرغيف والفول المدمس الى الكلام فى البطولة والغزل وغرما مرعى وسعدى وآخرين وأخريات ؟

ان هذه الملاحم حقيقة واقعة ، وان غرام الشعب بها حقيقة واقعة ، وان ثباته على الافتتان بها مع اختلاف الدول والاحوال الاقتصادية والطبقات الحاكمة حقيقة واقعة .

فأين ذهب تعريفنا الأدب بأنه مسألة اجتماعية بين هذه الحقائق الواقعة ؟ وأى فرق بين الأخذ بذلك التعريف واهماله غاية الاهمال ؟

اليس المقصود بالأدب الشعبى أن يكتب بلغة الشعب ؟

أليس المقصود به أن يلقى القبول والاقبال عند طبقة الشعب ؟

أليس المقصود به أن يصدر من صميم الشعب ولا يصدر من الحكام أو المستغلين ؟

أليس المقصود به أن يأتى طواعية من الناظم الى المستمعين بغير تسليط ولا اكراه ؟

بلى ٠٠ وكل أولئك كان موفورا للملاحم الهلالية وما جرى مجراها ؟ فلماذا كانت هذه الملاحم دائرة على البطولة والغزل ولم تكن دائرة على الرغيف والفول المدمس ؟ ومن الذى أكره الشعب على طلب هذه المعانى والاعراض عما عداها ؟

جـــواب واحد لا سبيل الى الحيـــد عنه بكلمة من كلمات الرطانة التى يلفظ بها أصحاب الأمر والنهى فى تعـــريفات الآداب ٠

وذلك الجواب هو شعور الانسان ٠

فالشعب « انسان » قبل كل شيء ، ونفس الانسان تهتز فى كل زمان لأريحية البطولة والغزل ، وتجزى فى ذلك على سنة الحياة التى لا سنة غيرها للأدب والفن ، كيفما اختلفت الطبقة الحـــاكمة ، واختلفت أحوال المعيشـــة ، واختلف الناظمون والمستمعون ٠

لقد كان الشعب يستمع الى مـــلاحم أبي زيد وهو موفور الطعام ناعم بالرخاء والسلام ، وكان يستمع اليها وهو مهـدد بالمجاعة والوباء ، ولم يكن من هم الحاكمين أن يعلموا المحكومين البطولة ويعرضوا أمامهم قدوة المجازفة والهجوم على المـــوت والخطر ، ولعلهم قد مضى عليهم زمن وهم لا يعلمون من هو أبو زيد ولا يسمعون باسمه ، بل لعلهم منعوا الجلوس على القهوات التى تنشد فيها تلك الملاحم مرات بعد مرات منعا للضوضاء والشجار ، وهم لا يدرون من أسبابه الكثير أو القليل ٠

ثم بطلت ملاحم أبى زيد وخلفتها بطـــولة رعاة البقـــر فى

البرارى الأمريكية ، أو خلفتها بطولة العصابات فى المدن الكبرى ، ولم تكن لرعاة البقر ولا للعصابات دولة تروج لها الدعوة فى وادى النيل ، ولم يكن اقبال الشعب على هذه الملاحم بعد تلك الملاحم لأنه « تأمرك » بعد أن تعرب ، وانما حلت دار الصور المتحركة محل القهوة البلدية وبقى حب البطولة والغزل كما كان ، لأنه حياة يفهمها الحى كائنا ما كان القائلون والممثلون ٠

واذا انحدرنا من عالم الانسان الى عالم الحيوان والنبات ٠٠

فما هو العنوان الاجتماعى الذى يندرج تحته زهر الفول وتغريد العصفور ؟

اننا نتخيل فى هذه اللحظة رطانا من أصحاب البرجوازيات والاسترخائيات والانتهازيات قد شال بأنفه وصعر خده وامتلأ عجبا من هؤلاء الناس الذين يسألون أمثال هذه الأسئلة الفضولية ويخفى عليهم أن الأمر متعلق باللقاح والتناسل ووفرة الغذاء فى الربيع !

وأفادهم الله وان لم يفيدونا شيئا ٠

ولكنهم مسئولون بعد ذلك : لماذا يغنى العصفور يا ترى اذا شبع ؟ أليس الشبع هو المقصود وفيه الكفاية ؟ ولماذا يغنى اذا تغزل ؟ أليست الغريزة الجنسية هناك ؟ ولماذا تضيع الطبيعة وقتها فى تزويق أوراق الفول ؟ أليس هذا ترفا برجوازيا استرخائيا مظهريا الى آخر هذه المنسوبات ؟

ما عهدنا فى تاريخ الانسان حطة دون هذه الحطة التى يهبط اليهـا ـ منتفخين بكبرياء الجهل ـ من يسمون أنفسهم بالتقدميين •

وما عهدنا أحدا أشد على الشعب قسوة من هؤلاء الذين يزعمون الغيرة على الشعب ويجمعون عليه بين الحرمان من المال والحرمان من الشعور • فاذا كان المجتمع « الرأسمالى » يقسو على الفقير فيحرمه من ضرورات العيش فأفظع من ذلك قسوة من يجرده من الشعور الانسانى ويفرض عليه أن يجهل معانى البطولة والعاطفة لأنه فقير •• واذا كان المجتمع « الرأسمالى » يفرض على الفقير أن يعمل لقوته فأفظع منه قسوة من يفرض عليه أن يقرأ لقوته ويتريض لقوته وينام ويصحو ويحلم ويعلم لقوته ، ولا شيء غير قوته فى الصناعة ولا فى العلم ولا فى الفن ولا فى الأدب ولا فى الواقع ولا فى الخيال •

لقد كان أجهل جاهل من المستمعين الى ملاحم الهلالى والزير سالم انسانا أكرم من هؤلاء التقدميين الذين يرسمون للأدب طريقة وللحياة طريقها • وهم عالة على الأدب وعلى الحياة •

وسيعاد تعريف الأدب على ألف صورة : مسألة اجتماعية تارة ومسألة اقتصادية تارة ومسألة حركية أو سكونية تارة أو تارات • ولكنه لن يمتنع بذلك عن موضوع ولن ينقطع لموضوع ولن يكون أدبا ما لم يكن له نصيب من شعور الانسان ، وبهذه المثابة يحدثنا عن القطب الشمالى فيحدثنا عن قريب ، ويروى لنا خبر البطولة فيروي لنا خبرا يهز نفس الفقير والغني

والصغير والكبير ويذكر لنا الزهرية فلا يقـول له قائل حي : دعها واذكر قدرة الفول المدمس ، ما دآم انسانا يرجـــع الى الطبيعة ان لم يرجع الى نفسه ، فيلمس منبت الفول وزهرته من تربة الحياة .

الوجـــودية

ان الوجودية فى أساسها مذهب محترم مقبول أو مذاهب محترمة مقبولة يستدعيها قيام المذاهب الهدامة التى تلغى وجود الفرد واستقلاله فى غمار كل جمـــاعة ينتمى اليهـا • وانما قامت الوجودية كأنها رد فعــل لتلك المذاهب يحفظ للفـــرد كيانه واستقلاله ويعرفه بحقوقه وواجباته بين قومه وبـــين أخوته من بنى الانسان فى جميع الأمم وجميع الحقب ، ولكن هذه الوجودية قد تنحدر مع المنحدرين بطبائعهم حتى تصبح ضربا من العدمية أو ضربا من الاباحية التى لا تعترف بشىء غير شهوات الفرد ودوافع الأثرة والانانية •

ومن الوجودية التى تستحق اسم العدمية تلك العقائد التى تنكر معنى الوجود وتقطع الوشائج العميقة بين وجود الانسان ووجود هذه الأكوان فى آزالها وآبادها التى لا حقيقة وراءها ولا معنى لكلمة العبث ان نسبت اليها •

وهذه العدمية هى التى يسخر منها فيلسوف العصر برتراند رسل فى كتابه عن الكوابيس فيضع على لسانها هذا النشيد باللغة الفرنسية :

« فى صحراء شاسعة الأطراف

« فراغ واسع من الرمال

« ذهبت فيه أبحث وأنقب

« ذهبت أبحث عن الطريق المفقود

» الطريق الذى أبحث عنه ولا أصل اليه
» تتيه روحى هنا وتتيه هناك
» فى كل جهة من الجهات الأربع
» وكلما بحثت لم أجد شيئا
» فى ذلك الفراغ الذى ليس له آخر
» ذلك الفراغ الذى لا ينقطع
» رمال .. رمال .. رمال
» تلك الرمال الخادعة الخانقة
» تلك الرمال الرتيبة المحزنة
» تمتد الى نهاية الأفق
» وأسمع صوتا فى النهاية .
» صوتا صاعقا يحلو أو حلوا يصعق
» ثم يقول لى ذلك الصوت
» أتحسب انك روح ضائع ؟
» أتحسب انك روح ؟
» أنت غلطان !
» أنت لست بروح

« أنت لست بضائع

« أنت عدم

« أنت غير موجود »

والكابوس فى هذا النشيد راكب على أنفاس « وجودى » يريد أن يثبت مذهبه •

ومذهبـــه أن الألم والخجل يخلقان الشعور فى الضمير • فالضمير موجود وصاحبه غير معـدوم ، ومن تجارب الكابوس أن يبتلى هذا « الجودى » بالتعذيب فى معسكرات النازية وأن يجيعه فى روسيا وأن يدخله فى الشيوعية الصينية ليتهم فتاة بريئة مخلصة بتهمة الخيانة والجاسوسية لعله يشعر بالخجل وتبكيت الضمير فينسب نفسه الى الوجود •

ثم يعود الى باريس فتنعقد المجامع ترحيبا بالمجاهد العائد من ميادينه ، ويدعى الى مجمع من هذه المجامع فيقبل وهو ينظر الى مكان ضيف الشرف فاذا فيه غراب واذا الغراب ينعب له بصوت يسمعه المجتمع كله :

« فلسفتك يا هذا عدم

« انها ليست بشىء »

« فلسفتك يا هذا ليس لها وجود

وينهض أخيرا على صدى هذا النعيب فيسمع نفسه يصيح : ها انت أخيرا تتعذب • ها أنت أخيرا موجود » •

هذه صورة من الوجودية الممسوخة ترادفها صورة أخرى على شاكلتها فى المسخ والضلالة ، وقوامها أن الفـــرد موجود والنوع الانســـــانى وهم ليس له وجـود · أو كما يقولون باصطلاحهم أن الوجود سابق للماهية ، وأن الانسانية التى هى « ماهية » الانسان كلمة على اللسان · وليس لها حق عليه لأنه هو مصدر الحق كله ومرجع الواجب كله فيما يختلج فيه من شعور الأنانية والانفراد بالذات ·

وعلى هذا الاعتبار أوجزنا القول فى الفصلين اللاحقـين عن الوجودية بمذاهبها المتعددة ، ليتبين منهـا موضع المــذهب الصالح وموضع المذهب الذى انحدر بانحـــدار القائلين به أو الداعين اليه :

الوجودية أو الوجدانية

ما هي الوجودية ؟ هي كلمة منسوبة الى الوجود •

ولكن لا يفهم منها بالبداهة أن المراد بها هو مطلق الوجود، لأن الحجر موجود والشجرة موجودة والحيوان موجود ، وقد تكون كلها موجودة بالنسبة الى غيرها ، لأن غيرها هو الذي يحس وجودها ويعرف لها صفة الموجودات •

والانسان على كونه مخلوقا حيا عاقلا قد يكون موجودا أيضا بالنسبة الى غيره لا بالنسبة الى نفسه ، ويكون حكمه في وجوده كحكم الحجر والشجرة والحيوان أو قريبا منها في مجمل التقدير ••

فهل نفهم من الجودية اذن انها منسوبة الى الحياة ؟ •• كلا ولا هذا هو المقصود بالمعنى الفلسفى لهذه الكلمة ، لأن الانسان يكون فى الحياة من مولده الى مماته ، ولا يخرج منها فى خلال ذلك ولو ذهب فى النوم أو غاب عن وعيه •

فالوجودية لا تعنى مطلق الوجود ولا مطلق الحياة ، ولكنها تعنى أن يهتدى الانسان الى وجوده بنفسه ، وأن يكون موجودا بالنسبة الى نفسه ، وأن يسبر غور وجدانه ويستجمع نقائضه فى وحدة شاملة تمضى الى اتجاه متناسق لا تنازع فيه ، وأن يكون بهذه المثابة شيئا لا يتكررولا يتعدد ، لأن الناس — من حيث هم موجودات — خلائق متشابهة ، يجوز فيها التعدد والتكرار •

ولكن الانسان الذى اجتمع بنفسه وسبر غورها وعمل في

الحيـــاة بكل قوة من قوأها شيء واحد لا تعــــدد له ولا تكرار لكيانه ، وهو في امتناع.تكراره أحرى من الكف التي يمتنـــع تكرارها بين انســـانين اثنين بالغا ما بلغ التقارب بينهما في النسب أو في الملامح والقسمات • واذا امتنع أن تتشابه كفان فتشابه الوجودين النفسانيين أحرى وأقمن بالامتناع •

وتسأل : كيف نهتدي الى هذا الوجود فنعرف به أنفسنا كما نعرف به مدى العلاقة بين وجودنا وهــذا الوجود العظيم المحيط بكل كائن من هذه الكائنات ؟

أترانا نهتدي اليه بالتحليل النفساني والمراقبة الباطنية ؟

كلا ، لأن التحليل النفساني يفترض انقساما في النفس بين القوة التي تحلل والقوة التي تخضع للتحليل ، أو يفترض نوعا من القرابة بين المستطلع وما يراد استطلاعه ، وانما يتحقق الوجود بكل جوانب الوجود ، ويتحقق بأن يعمل الانســـان « موجودا متناسقا » ولا يتحقق بأن يعرف ويقنع بمجـــرد العرفان •

كذلك لا نستهدي الى الوجودية أو الوجدانية بهدى الاخلاق المقررة واصـــول الآداب المتواضع عليها ، لأن الأخـــلاق والآداب تسيطر على الجماعات وتنشأ قبل نشوء الأفراد ، ولا تنبعث من أعماق الفرد في دخيلة وجوده التي ينطوي عليهـا دون غيره •

وانما نهتدي الي وجودنا بثورة في أعماق هــذا الوجود ;

نهتدى اليه بصدمة فى عاطفة قوية ، أو بيقظة من يقظات الضمير ، أو بضربة من ضربات التجارب تفصلنا من المجتمع الذى نعيش فيه أو تتناول مكاننا منه بالتحويل والتبديل .

نهتدى اليه بمحنة تردنا الى أغوار حياتنا وتطيل بحثنا فى سراديبها وزواياها ، وتضع أيدينا على ميزان شعورنا وتفكيرنا وخيالنا ، فنعرف كم « نزن » فى كل هذا وماذا نستطيع وماذا لا نستطيع ، وماذا نقف عنده فلا نحاول الاستطاعة فيه .

ومتى أدركنا هذه الآونة وجب علينا أن « نعقد اختيارنا » ولا نتردد فى مفترق الطريق، بين نهجين حائرين الى غير التقاء .

مؤسس هذا المذهب الدنمركى سورين كركجرد Soren Kierkegard ولد فى سنة ١٨١٣ وتوفى فى الثالثة والاربعين

وحياته تفسر مذهبه أتم تفسير .

لأنه صدم الصدمة التى تضطر الانسان الى «الاختيار» وهو فى مقتبل الشباب : أحب الفتاة ريجينا ألسن ، وبادلته الحب فى بادىء الأمر ، ولكنها تركته واقترنت بغيره ، وتبين له وهو فى الثامنة عشرة أنه لم يخلق للصلة الجنسية المثمرة ، فقرر المتجه الذى يتجه اليه عند مفترق الطريق .

وهذا الاختيار هو ما عناه فى كتابه الباكر المسمى « اما . أو » وفحواه : اما أن تجد نفسك أو تفقدها كل الفقدان » .

وقد أدار الكتاب على الحوار بين انسان فنان وانسان يدين

بالأخلاق ، وكان كركجرد نفسه مزيجا من الانسانين ، لأنه كان مطبوعا على التدين ، مطبوعا على تذوق الفن والجمال • وقد جعل الفنان فى كتابه مثلا للبرة المضللة ، وجعل المتدين مثلا للمطأنينـــة الوادعة وهى ـ من العجب ـ طمـــأنينة الأسرة والزواج •• !

واختار كركجرد وجوده ، فاختار أن يعيش على سنة السيد المسيح فى هذه الدنيا التى لا تجتمع فيها القداسة والوجاهة واتخذ شعاره أن لا يخدم سيدين ، فان السيد المسيح قـــد خلص من تبعات الأسرة والوطن والعرف الشائع ، وكان قدوة لمن يخدم سيدا واحدآ لا يدين بسواه •

وكانت أطوارالفيلسوف غريبة وأسلوبه فىالكتابة أغرب •• فقد يصدر له كتابان فى وقت واحد أحدهما بتوقيع صريح ، والآخر بتوقيع مستعار ، وقد يؤلف كتابا كله مقدمات وليس فيه غير المقدمات موضوع ، وقد يستخدم عبارة الوعاظ تارة ويستخدم عبارة الملغزين المتصـوفين تارة أخرى ، ويبدو فى جميع ذلك صادقا لطبيعة واحدة : وهى طبيعة الايمان •

وكان مذهب « هيجل » الفيلسوف الالمانى الكبير هو البدعة الفلسفية الشائعة فى شباب كركجرد ، وخلاصة هذا المذهب أن الكون كله هو مرآة « الكائن الأبدى المطلق » •• وأن هذا الكائن الأبدى المطلق تجلى فى الموجودات جميعـا ويلغ أقصى مراتب التجلى وعرفان الذات فى الانسان •• فالانسان اذن هو صورة العقل الالهى فى أرفع مظاهر الوجود •

ولم يتعرض مذهب هيجل هذا لحملة قط أعنف من حملات كركجرد عليه ، لأنه يرتفع بالصورة الالهية عن هذه الصورة الانسانية ، ويؤمن بان الوجود الانسانى على عكس ذلك هو الذى يتسامى الى عرش الله ، فلا يسمو الى مرتبة أعلى وأشرف من أن يحب الله ويشعر بحب الله اياه ، وكل انسان محبوب من الله فى اعتقاد كركجرد ، ولكن الفرق بين انسان وانسان هو الفرق بين من يشعر بهذا الحب الالهى ومن لا يشعر به ، لأنه مستغرق فى ألوان أخرى من الحب أو من العلاقة : كعلاقة الطمع أو كعلاقة الهوى أو علاقات الأزواج والأبناء .

وغنى عن القول أن كركجرد يتدين على سنة فى الدين غير سنة العرف المتفق عليه بين سواد الناس ، لأنه يؤمن بأن حق للفرد فى اختيار عقيدته أعظم من حق الكنيسة وحق الجماعة ، ويؤمن كما قدمنا بأن وجود الفرد وحدة غير قابلة للتكرار ، وكل ما يستطيعه المؤمن للمؤمن أن يريه بالمثل المحسوس أن باب الاختيار مفتوح ، وأنه اما أن يختار وجوده بالهام ضميره أو يضيع .

والذى نراه أن مكان كركجرد بين كبار المتعبدين وذوي الشاعرية أصح وأوفق من مكانه بين كبار الفلاسفة ، لأنه كان حساسا ثاقب الذكاء عميق الوجدان ، ولم يكن من أصحاب العارضة القوية والفكر الواسع المحيط بآفاق القضايا العظمى .

فلا جرم كان يفصل بين العقيدة والمعرفة ، ويباعد بين عالم

الفكر وعالم الحقيقة ، ويعتبر التعمق فى الوجود ممكنا بغير التعمق فى الوعى المفكر والمنطق السديد •

على أن الوجودية قد بدأت بكركجرد ولكنها لم تنته بالخاتمة التى وقف عندها واستقر عليها فى حياته القصيرة •

فان هذا المذهب قد سرى الى البلاد الالمانية وتجدد نشاطه فى أعقاب الحرب الأولى على أثر الهزيمة التى منى بها الألمان وجنحت ببعضهم الى العقائد المادية وببعضهم الى التنفيس عن ضمائرهم بنزعة من النزعات الروحية أو الوجدانية • واشتهر من فلاسفة المذهب أعلام نابهون مثل كرل جسبرز Jaspers وادمند هسيرل Husserl ومارتن هيدجار Heidegger ودلثى Dilthey وزيمل Zimmel وقد مات منذ سنوات •

واتسعت أطراف المذهب حتى وجد فيه من يؤمن ايمان كركجرد ومن ينكر وجود الله ولا يرى فى الكون ظاهرة الهية على الاطلاق ، ولكنهم كانوا على التقاء فى بعض المسائل المتشابهة لاتخفى الصلة بينها وبين الوجودية فى جوهرها الصميم •

فجميع الفلاسفة الوجوديين قليلو التعويل على « معنى عقلى» يفسرون به الحياة ، متبرمون بالمقررات المنطقية والعلمية وسائر المقررات التى ترجع بالأمر الى سلطان أو نظام •

وجميعهم معتصمون بتجارب النفس ودوافع السريرة التى تستقل بها الشخصية الانسانية في جهادها الباطني ، ونزوعها

الدائم نحو التوفيق بينها وبين مشكلات الوجود الكبرى •

ومعظمهم يوصي بتماسك الأخلاق ومقابلة الحيرة النظرية بالعمل الخلقي وتجريد النفس في جملتها لكفاح الحياة •

ولم تنقض على الحرب العالمية الأولى أربع سنوات حتى ظهر المذهب في فرنسا واشتغلت به الطبقة التي بلغت من الثقافة ومن الذوق الفني أن تبحث لها عن فلسفة للوجود تملأ بها فراغ الضمائر من العقائد الروحانية في عصرنا الحديث •

لكن الوجودية لم تزل في فرنسا بدعة مقصورة على فئة قليلة من طلاب الغرائب ، الى أن كانت الحرب العالمية الثانية ومنيت فيها فرنسا بتلك الهزيمة النكراء •• فثارت على المادية الشيوعية وعلى الروحانية التقليدية في وقت واحد واندفعت فيها بين الطبقة الوسطى دفعة جامحة الى الايمان بالحرية الديمقراطية ولكنه الايمان الذي لا يدين بالسلطان لرياسة مقررة أو هيئة من الهيئات •

وأعلام هذه المدرسة في فرنسا هم : جان بول سرتر Sartre والبرت كاموس Camus ومدام سيمون دي بوفوار Beauvoir ويتبعهم طائفة غير قليلة من الكتاب الصحفيين ••

فالوجودية التي تتمثل في كتابة سرتر هي وجودية الفخر بالألم والشدة ، واعتماد النفس على النفس في اختيار الطريق المرتسم لها في أعماق سريرتها ، على وفاق كيانها الشخصي ، ولو كان اختيارها مناقضا لاختيار المقاديرِ •

والوجودية التى تتمثل فى كتابة كاموس هى وجسودية الاطمئنان الى عبث الحياة • وعنده أن الانسان عى هذه الدنيا شبيه ببطل الأسطورة الاغريقية سيسفوس ••• وهو رجل عصى مشيئة الأرباب والتمس منهم بعد الموت أن يعود الىالدنيا ليؤدب زوجته على خيانتها ، فسمحوا له بالعودة الى أجل محدود وجاوز هو الأجل المحدود غير مكترث بنذير القضاء ، فحكموا عليه بأن يتردى الى الجحيم مسخرا فى عمل لا طائل تحته وليس له انتهاء ، وذاك أن يستجمع جهدهليرفع صخرة عظيمة منأسفل الجبل الى قمته العليا ، ثم تنحدر الصخرة فيعود الى رفعها مرة بعد مرة الى غير نهاية معلومة ولغير قصد معروف •

وكل إنسان فى رأى كاموس هو سيسفوس مسخر فى مثل هذا الجهد الضائع والعبث العقيم ، ولكنه يبحث عن معنى هذا الكفاح فيشفى ويطمئن الىخلوه من كل معنى ، فيخرج منه ببطولة الجلد والثبات ويستريح من قلق الانتظار ، ومتى قدر على الانسان أن يحرم الجهاد فى قضية رابحة معلومة الأسباب فأشرف الجهاد بعد ذلك جهاده فى قضية خاسرة مجهولة الأسباب

ومدام بوفوار تضرب على نغمة كهذه النغمة ، وتزيد عليها بشىء من الغلواء والتكلف واتخاذ الأوضاع أو « البوزات » كما يسمونها فى لغة التمثيل •

هذه الوجودية فى فرنسا ـ بعد الحرب العالمية ـ ظاهرة تقبل التعليل القريب •

ففيها النزعة الوجدانية ، وفيها الايمان بالحرية الفردية ، أو

باختيار الانسان لنفسه فى عالم الضمير ، وفيها التمــرد على سلطان الكهانة وسلطان الرياسة المقررة على الاجمال ، وليس بعجيب أن تروج بين الفرنسيين - بعد الحرب العالمية - عقيدة تجمع هذه النزعات فى نسق واحد لأنها النتيجة الطبيعيــة لطغيان الحركات الجماعية أو الزحامية ، ويقظة الايمان الفردى مع ثورة الفرد والأمة على رجال الدين .

ويمكن أن يقال ان فلسفة « هيجل » قد تمخضت عن أخوين شقيقين يجمعان نقائض الأسرة كلها فى طرفين متقابلين ، كما يشاهد فى كثير من الأشقاء بين أسر الآباء والأبناء .

فأحد الشقيقين هو المادية الجماعية ، أو هو المــادية الثنائية Dialectical Materialism كما شرحها الشيوعية المركسية .

والشقيق الآخر هو الوجودية أو الوجدانية ، كما تسلسلت من مذهب كركجرد ، وهذه الوجودية هى معسكر الوجــدان والحرية الفردية يتأهب لاتخاذ مكانه فى الميدان أمام معسكر المادة والجماعة العمياء .

ولا بد للمعركة من قرار .

الوجودية بين أنصارها وخصومها

ونحن نكتب هذا العنوان لنسرع الى نقضه ، أو تعديله ، في السطر الأول من المقال !

اذ كانت الوجودية أقل المذاهب قبولا للتنازع الشديد بين الأنصار والخصوم ، لأنها تتسع للنقائض من أقصى اليمين الى أقصى الشمال ، وتضم تحت عنوانها الشامل أناسا يؤمنــــون ايمان العجائز ، واناسا يكفرون بكل معتقد ويتحللون من كل دين .

وحسبنا من عنوان الوجودية أنه يضم تحته فلاسفة من أمثال كير كجرد ، وبردابيف ، وجابرييل مارســـل ، وهيــدجر ، وسارتر ، وكرشنا مورتى .. وآخرين !

فكيركجرد Krishua Mufti دانمركي يميـــل الى الكنيسة البروتستانتية .

وبردابيف Berjayacf روسى يميل الى الكنيســـة الأرثوذكسية .

ومارسل Myth فرنسى يميل الى الكنيسة الكاثوليكية .
وهيدجر Heijdeggct ألمانى يهودى يميل الى الالحـــاد ويكاد ان ينكر كل موجود وراء الطبيعة .

وسارتر Sartre فرنسي « نصف يهودى » يفرط فى الالحاد والانكار غاية الافراط .

وكرشنا مورتى Knis hna zuurti هندى يتصوف تصوف النساك ويجعل لكل روح بشرية محرابا مستقلا تعبد فيه بمعزل عن جميع الديانات .

مذاهب الوجوديين :

ويوجد بين « الوجوديين » مثل هذا الاختلاف فى مسائل الأخلاق والواجبات الاجتماعية .. فمنهم من يدين بالاباحة المطلقة ، ومنهم من يروض نفسه على التقوى كأنه راهب فى صومعة .

فهم متفرقون بين العقائد والمذاهب والآراء ، وليس بينهم من جامعة تسوغ وضعهم تحت عنوان واحد الا أنهم يؤمنون جميعا بأن الوجود مقدم على الماهية .

وهذا اصطلاح فلسفى يمكن تبسيطه وتقريبه بلغة الكلام الشائع فى كل يوم .

فهم يؤمنون بأن الوجود الحقيقى انما هو وجود الافراد ، وانما النوع كله اسم من الأسماء لا وجود له فى الخارج ..

زيد وعمرو وابراهيم ويوسف وفلان وعلان ـ هؤلاء موجودون حقيقيون لا شك فى وجودهم ، ولكن « الانسان » أو النوع الانسانى » كلمة لا حقيقة لها فى الخارج ، ولا يراد بها الا تقريب التصور والادراك .

وما دام الأمر كذلك ..

ومادام الفرد هو الحقيقة الموجودة فمن الظلم أن نضحى به

فى سبيل الكلمة الوهمية أو الصورة الخيالية التى تجرى على اللسان ولا تظهر للعيان •

كيف يتقرر وجود الفرد

ان الفرد هو الموجود فمن حقه أن يقرر وجوده أو أن يثبت وجوده قبل كل شيء ، وليدع كلمة « الانسان » موزعة بين الجميع تصدق على هذا كما تصدق على ذاك ، ولا أثر لها فى تحقيق الوجود أو أبطال الوجود •

ومن هنا يبدأ الخلاف بين الوجوديين أنفسهم ، وكلهم مع ذلك وجوديون •

فما هى الطريقة التى يقرر بها الفرد وجوده ويتحرر بها من الوهم والخيال ؟

عند فريق من الوجوديين أن وجود الفرد يتقرر ويتحقق باطلاق العنان لرغباته وشهواته يفعل ما يشاء ولا يبالى العرف أو الدين •

وعند فريق آخر من الوجوديين أن الفرد يتحقق وجوده اذا أتصل بالوجود الاعظم : وجود الآلة أو وجود الكون ، أو وجود « الكارما » فى عرف البرهميين •

وعند فريق غير هؤلاء وهؤلاء أن وجود الفرد يتحقق بمواجهة المخاوف والأخطار والتعرض للقلق واستخراج كل قوة فى أعماق النفس بتجربة الخوف والتغلب عليه وقبول الاقدار قبول الاختيار •

وعند غيرهم جميعا ان الاشتراك فى العقيدة تكرار وتقليد ، وأن التقليد تزييف وتلفيق ، وأن الوجود الصحيح انما يكون بالعقيدة التى لا تقبل التكرار ٠

مذهب قديم !

هل هذا المذهب حديث فى مذاهب القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ؟

كلا ٠ أن الخلاف بين القائلين بالوجود والقائلين بالماهية أقدم من أرسطو وأفلاطون ٠

والقول بالمثل جمع مثال فى مذهب أفلاطون أو القول بالصور جمع صورة فى مذهب أرسطو ، انما هما نسخة قديمة من الخلاف على وجود الفرد ووجود النوع ، أو على الجنس والفصل كما يقولون فى لغة المناطق الاقدمين ٠

وقد تجدد هذا الخلاف على أشده وأعنفه فى القرون الوسطى بين الواقعيين Realists والاسميين Nominalists

فالواقعيون يقولون أن الوجود الحق للأفراد ، والأسميون ـ فى رأى خصومهم ـ يتعلقون باسم اللسان لا وجود له فى الحس والعيان ، وكل ما فيه أنه عنوان ٠

فهذا خلاف قديم لم يخلقه الوجوديون المتأخرون ، ولكن الوجودية الحديثة تعد مع ذلك ظاهرة من ظواهر القرن العشرين

لم يعرفها الأقدمون كما عرفها اليوم الفلاسفة المعاصرون •

الوجودية الحديثة :

هذه الوجودية الحديثة فى الواقع هى ظاهرة اجتماعية نشأت بعد نشوء الديمقراطية وتجسمت وتضخمت بعدنشوءالشيوعية ضاع الفرد فى غمار المجموع

أصبح الشأن كل الشأن للعدد لا للمزية والخصاص الفردية

فالوجودية الحديثة هى ثورة احتجاج من الفرد على طغيان الجماعات ، وهى اثبات لحق الفرد أمام الدعاوى الكثيرة التى تكاد أن تلغيه وتفنيه فى غمار السواد •

ومما لا جدال فيه أن الوجودية بهذا المعنى ظاهرة طبيعية معقولة ، وأن الحاجة ماسة فى العصر الحاضر الى اقامة الحد الفاصل بين طغيان الكثرة العددية وحقوق المزايا الفردية ، وأن كل وجودى متدين أو غير متدين فى زماننا هذا يريد أن يثبت حقه أمام السلطة الدينية أو السلطة العرفية أو السلطة السياسية •

شرط الاعتدال :

الا أن المغالاة محذورة من الطرفين لأن المغالاة من هنا أو هناك تضر بالفرد كما تضر بالمجموع •

فمن المغالاة أن يمحى الفرد محوا فى سبيل الجماعة ، لان فى هذا المحو تضييعا للمزايا والكفايات ٠

ومن المغالاة انكار النوع واثبات الفرد وحده ، لأن النوع موجود فى بجسم الفرد متمثل فى غرائزه النوعية التى هى أقوى دوافعه النفسية ، سواء تمثلت فى الحب بين الرجل والمرأة ، أو فى الحنان الابوى على الأبناء أو فى غريزة الاجتماع ٠

وقوام الأمرين أن الفرد موجود وأن النوع موجود ، وأن صلاح النوع فى الانتفاع بمزايا الأفراد ، وأن صلاح الفرد فى الاعتراف بغرائزه النوعية وعلاقاته الانسانية التى لا فكاك منها

هذا هو الجانب الاجتماعى النفسانى من المذاهب لوجودية على تعدادها وافتراقها ٠

وأما الجانب الفلسفى فمداره على البحث القديم فى مبلغ ادراكنا للحقيقة بحواسنا وعقولنا ٠

هل نحن نعرف الوجود بالحواس والعقول ، أو وراء ذلك حقائق الأشياء فى ذواتها لا تدركها الحواس ولا تنفذ اليها العقول ؟

وسيظل الخلاف على ذلك قائما مادام فى الدنيا موجودون يبحثون عن الوجود ٠

الفوضوية والوجودية

قامت فى فرنسا فى القرن الماضى حركة سياسية سميت فى تاريخ الفلسفة باسم L'anarchisme بزعامة Pierre Proudhon وتلخص سياسته هذه بالحرية المطلقة فلا جبر ولا الزام على الأشخاص ولا دين ولا دولة ، بل تهدف الفوضوية الى القضاء على الخضوع للسلطة سوى سلطان العلم والعقل • ولكن لم. يقدر لهذا المذهب السياسى أى نجاح فضلا عن اهمال علماء السياسة لدراسته •

وفى فرنسا الآن حركة أدبية وأخلاقية واسعة هي المذهب الوجودى • ومن المعروف عن هذا المذهب أن كل انسان يعمل ما يريد وفى عمله يجب أن يكون بعيدا عن الخيال ، وقد قال سارتر : « اننا نعيش فى المادة فيجب إن نخضع للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد » •

ولشدة الشبه بين المذهب السياسى السابق والمذهب الأدبى الموجود الآن نسأل : هل هناك علاقة بين المذهبين ؟ وهل يمكن اعتبار الوجودية امتداداً للفوضوية ولكن فى ثياب الأدب ••

ادوارد فؤاد

طالب بآداب القاهرة

قسم التاريخ

أحسن الطالب الأديب أولا فى تسمية الفوضوية والوجودية بالحركة • لأن الحركة أليق بهما من اسم المذهب الذى ذكره بعد ذلك ، وقد تكون الوجودية مناقضة للتمذهب بحكم قواعدها الأولى ، وهى تجتمع كلها فى التعويل على استقلال الفرد بآرائه وميوله ، وينتمي اليها - أى الى الوجودية - أكثر من عشرين مفكرا لايلتقى واحد منهم بالآخر الا فى عرض الطريق • فهى مذاهب كثيرة وليست بمذهب واحد •

وكذلك الفوضوية فى تشعبها وكثرة مدارسها وأقاويلها ، فان برودن وباكونين وكروبتكين وأتباعهم من روسيا وأسبانيا يختلفون بالرأى كما يختلفون بالعمل ، ولابد من هذا الاختلاف بين القائمين بالحركة التى تهدم كثيرا ولا تتفق على خطط البناء •

وأحسن الطالب أيضا فى التفرقة بين الحركتين ، لأن احداهما سياسية وهى الفوضوية ، والأخرى أخلاقية أدبية وهى الوجودية ، وما بينهما من التوافق العرضى فانما هو من طريق المصادفة السلبية ، حيث يتفق المنكرون للأسس القائمة فى بعض الأمور وان تفرقوا فى الأسباب والأغراض •

بل تكاد الحركتان تتناقضان فى مبدأ أصيل يميز كلا منهما ويرجع اليه الفارق الأكبر بينهما •

فالوجودية تعول على استقلال الفرد كل التعويل ، ولا وجودية فى رأى من الآراء بغير هذا الاستقلال •

والحركة الكبرى من حركات الفوضوية - وهى المعروفة بالفوضوية الشيوعية - تخرج الفرد من حسابها وتكاد تمحوه فى سبيل الجماعة ، ولم تنشأ الوجودية الا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردى فى الحركات الاجتماعية ، ولا استثناء فى ذلك للديمقراطية ولا للاشتراكية المعتدلة ولا لدعوات التأميم والخطط المرسومة لتنظيم العمل والثروة ·

فالوجودية فى ناحية من نواحيها الهامة احتجاج على الفوضوية كلها واحتجاج على الفوضوية الشيوعية قبل غيرها، وما يتلاقيان فيه من انكار التسلط فانما هو مصادفة عرضية لا تلبث أن تبتدىء على اتفاق حتى تتشعب على شقاق ونضال · لأن انكار التسلط فى الحركة الفوضوية يحمل بين طواياه انكار المزايا الفردية ورد الأمر كله الى الجمهرة الغالبة بالعدد والكثرة دون القيمة والكفاية ·

الا أن الحركتين تتشابهان فى خصلة واحدة وهى أنهما معا غير مفهومتين على اتضاح وجلاء ، لكثرة الشعب التى تتفرع عليهما وكثرة الأدعياء الذين يلصقون بهما وكثرة الآخذين منهما بالقشور دون اللباب ·

الفوضوية لا تنكر النظام :

فالذى يسبق الى الذهن من اسم الفوضوية - ولا سيما اسمها باللغة العربية - انها تبطل النظام وتلغيه وتدعو الى مجتمع مطلق من الآداب لا نظام فيه ·

وهذا غير صحيح •

لأن الفوضوية انما تنكر « التسلط » كما قال الطالب النجيب فى خطابه ، ولكنها لا تنكر الهيئات التى تتولى الأعمال العامة بالمشاركة والمشاورة ، ولا تلغى هيئة واحدة لازمة للتعليم أو لصيانة الصحة أو لادارة المصانع أو لتوزيع المطالب والحاجات •

ودعوى برودون على الخصوص قائمة على لزوم هذه المصالح العامة واستغنائها عن « المتسلطين » الذين يعتمدون على القوة دون غيرها فى تغليب مصلحتهم على سائر المصالح الاجتماعية•

وقد ألف كتابه : « ما هى الملكية ؟ » ليقول انها هى السرقة ويقول من ثم أن اغتصاب السارقين للثروة المشتركة يضطرهم الى اغتصاب آخر لحفظ ما سرقوه فى أيديهم وهو اغتصاب « السلطة » واحتكار الشريعة والقانون •

وعند برودون أن اغتصاب الملكية واغتصاب السلطة هما الباعث الأكبر على الجريمة والفساد ، فحيث لا اغتصاب لا اجرام ولا فساد ولا حاجة الى التسلط والمتسلطين •

وهذا الرأى قد بطل عند علماء السياسة وعلماء الاجتماع ، كما قال الطالب النجيب ، لأن الدراسات النفسية والمقارنات الاجتماعية بين المجتمعات الأولى والمجتمعات الحديثة قد عرفت الناس ببواعث الجريمة ولم تحصرها فى البواعث الاقتصادية•

ولا تدعو الى القتل :

ومن الشائع عن الفوضوية أنها تدعو الى القتل أو الى الاغتيال السياسى لتحقيق برنامجها •

وهذا أيضا من الاشاعات التى تصدق على نفر قليل من الفوضويين ولا تصدق على الحركة كلها ، وقد بدأ الاغتيال قبل عصر برودون وعاش بعده ولم يكن موقف الدعاة الكبار منه موقف التأييد والتقدير الا على سبيل الاغضاء والاضطرار

والنفر القليل الذىيدين بالاغتيال السياسى بين الفوضويين يطلق على الاغتيال اسم « الدعاية بالفعل » أو الدعاية المثيرة ويعتقد أن حوادث الاغتيال تنبه الأذهان الى مقاصد الفوضوية فيتساءل عنها من يجهلها ولا يباليها ، ويفهمها الناس من طريق هذا التساؤل فيقبلون عليها •

وقد أنكر كروبتكين مبدأ الاغتيال السياسى فى مقاله الذى استكتبته اياه دائرة المعارف البريطانية بطبعتها الحادية عشرة• وحاول أن يفسره بقوله انه من قبيل القصاص ورد الفعل للتنكيل بأصحاب هذه الحركة • وان المغتالين لا يعتدون على الناس جزافا بغير تفرقة بينهم لمجرد التنبيه ولفت الأنظار • ولكنهم يعتدون على المعتدين ويجزونهم بما فعلوه فى حماية السلطة والقانون •

ثم نشأت في روسيا طائفة فوضوية اشتراكية تنادى بمقت

الاغتيال وترى أنه من معوقات الدعوات والمنفرات منها. ولكنها لم تكن تشتد فى ادانة المغتالين ولم يكن بينها وبين الشيوعيين فارق كبير فى الوجهة الأخيرة . فانما كان الفارق الجوهرى بين الفوضوية والشيوعية أن الشيوعية ترضى عن قيـــام السلطة أثناء فترة الانتقال لقمع العناصر الرجعية ، وتمهل هذه السلطة الموقوتة أن تذبل على شجرتها فتسقط بغير جهد من المجتمع لانتهاء الحاجة اليها .

ولا تنكر الاعتقاد :

وليس من الصحيح أن الفوضويين جميعا ينكرون الاعتقاد أو ينكرون الديانة فى صورة من صورها التقليدية أو المبتدعة

فان الشعبة التى يقودها سوريل ويقترح فيها اقامة النقابات مقام الحكومات تبنى دعوتها كلها على العقيدة التى تسميها ال myth وتؤمن بضرورتها لكل حركة انسانية .

وانما ينكر الفوضويون الديانات التى يتخذها المتسلطون ذريعة للسيطرة على الضعفاء ، وهى من قبيل المذاهب التى قال عنها أبو العلاء :

انما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنيا الى الرؤساء

وليس برودون مؤسسها :

كذلك يقال دائما أن برودون هو أبو الفوضــوية وصاحب الدعوة الأولى اليها .

وهو قول صحيح اذا أريد به تنسيق الفلسفة وتطبيقها على النظم العصرية • ولكنه مع ذلك غير صحيح على اطلاقه فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث •

فالفيلسوف الرواقى زينون الذى نشأ فى القرن الرابع قبل الميلاد كان يؤمن بالمجتمع المتحرر من السلطة ويفخر بأن تلاميذه يتعلمون منه أن يصنعوا طوعا مايصنعه سائر الرعايا مكرهين أو مهددين •

والمفكر الانجليزى وليام جدوين Cojwin الذى فى القرن الثامن عشر شرح فى كتابه عن العدل الاجتماعى وسائل الحكم الذى يتوزع بين الهيئات ولا ينحصر فى سلطة مركزية تملك وسائل الارهاب والاكراه •

ويمكن أن يقال ان فلسفة الحكم منذ وجدت كانت تشتمل فى كل عصر على مدرستين متقابلتين : مدرسة التوسع فى سلطان الحكومة لتنظيم المجتمع ، ومدرسة التضييق من هذا السلطان والاكتفاء منه بأقل ما يستطاع لحماية الأبرياء ، وليست الفوضوية الا تطرقا فى هذه المدرسة الى أقصى اليسار • يدعو اليه تطرف الاستبداد على النحو الذى كان عليه قبل الثورة الفرنسية •

الوجوديات

أما الوجودية فالاضطراب فى قواعدها أشد من الاضطراب فى قواعد الفوضوية ، لأنها وجوديات كثيرة لاوجودية واحدة ،

وربما تناقض الفيلسوفان الوجوديان فى العصر الواحد والبلد الواحد كما يتناقص الايمان العميق والالحاد السافر أو كما يتناقض الزهد والاباحية ، ولعل الكثيرين لا يفهمون منها الا اللغط الشائع عن الاباحية الاخلاقية المنطلقة من جميع القيود، فيقبلون عليها لأنها سند فلسفى يسرغون به ضعفهموانحلالهم، وهم يخجلون - أو ينبغى أن يخجلوا - من الضعف والانحلال بغير سند منسوب الى الفكر والفلسفة •

والأساس الصحيح الذى تقوم عليه الوجوديات السليمة هو انصاف ضمير الفرد من طغيان الجماعة على استقلاله ، ولكن الاستقلال كالمال يلزم الانسان لأغراض كثيرة ، فمنه ما يلزمه للعصمة من الزلل ومنه مايلزمه للتورط فى الزلل وتيسير الذرائع اليه •

وأسوأ الوجوديات الاباحية لا يسوغ الانطلاق من قيود الآداب بغير نظر الى العواقب والضحايا ، فاذا اختار الوجودى أن يستوفى كيانه الفردى بأشباع شهواته فهو حر فى اختياره واحتمال جرائر هواه ، وهو حقيق أن يوازن بين الخطر والأحجام على علم بما يصيبه من المتعة وما يصاب به من الأذى، وتلك هى قيمة « الاختيار » الملائم فى عرف هؤلاء الوجوديين •

أما المسوغ الفلسفى الذى يستند اليه الوجوديون الاباحيون فهو أسخف الأسناد الفلسفية التى ظهرت فى عالم الفكر والعقيدة •

انهم يقولون ان الوجود الحقيقى هو وجود الفرد المعروف

بشخصه وكيانه ، وانماالنوع كلمة أو لفظة أو خيال لا جود له في غير التصور ، وليست « الانسانية » الا كلمة خاوية لاتوجد بمعزل عن هذا الفرد وذاك الفرد أو هـــذا الانســان وذلك الانسان ·

ومن هنا اسم الوجودية الذى ينتسبون اليه ويحسبونه تصويرا للواقع لا مراء فيه ·

الا أن الواقع الذى لا مراء فيه أن النوع موجود فى تركيب كل انسان وانسانة ، وأنه ما من خلية فى بنية الفرد لم يتمثل فيها النوع تمثيلا أوفى وأعمق من تمثيل الفرد ذاته بجميع خصائصه ومقوماته ·

ولقد ثبت ثبوت اليقين أن قوام البنية مرتبط بالغددالصماء وغير الصماء ، وأن علاقة هذه الغدد بالخصائص النوعية وثيقة جدا فى عملها المنفصل وأعمالها التى تتعاون عليها ·

واذا كان تمثيل النوع حيويا أو « بيولوجيا » حقيقة لاريب فيها فالتمثيل النفسانى أو السيكولوجى حقيقة تضارعها ثبوتا ويقينا ان لم تكن أبرز منها للوعى والشعور ·

وعلى هذا لا يمكن أن يقال ان الفرد موجـــود حقيقى وان النوع وهم ليس له وجود ، لأننا لا نستطيع أن نتخيل فردا مجردا من الخصائص النوعية فى كل خصلة من خصــاله وكل خلجة من خلجات وعيه وشعوره ، ومن قال أنه ينطلق على هواه ويمضى على رأسه غير مبال بمصير النوع الى الفناء فعليه قبل

كل شيء أن يخرج من دعوى « الوجودية » الى دعوى « العدمية » .. لان فلسفته تقوده الى فناء الفرد وفناءالانسانية ، حيث يزعم أنه يبالى بحاضره ولا يبالى بمصيره ولا بمصير الانسانيـــة جمعاء .

وبعد فهذه الوجودية كلها شيء والمدارس الفوضية كلها شيء آخـــر .

ان الوجودية لا تسرى على الجماعة ولا تتجه اليها الا من طريق الاتجاه الى استقلال الفرد على حدة .

أما الفوضوية فهى جماعية قبل كل شيء ، وهى حـــركة سياسية لاتنظر الى الافراد متفرقين ولا تبـــالى بهم مستقلين ، وكلهم سواء عندها فى ظل النظام الذى لا سلطة للطغاة عليه ، واذا اتفق الوجوديون والفوضويون فى كراهة التسلط فقـد يتضارب الفريقان اذا كانت المسألة مسألة طغيان الجمـــاعة لا مسألة الطغيان من أصحاب السلطان .

انا وجـــودى

- وكاتب هذه السطور « وجودى » اذا كان معنى الوجودية انصاف الضمير الفردي وتقديس الانسان المستقل بفكره وخلقة

وعندنا أن الجماعة المثلى هى الجمـاعة التى تهيء للفرد غاية ما يستطاع من الكرامة والاستقلال ، وانها اذا توقف وجوها على فناء الفرد ومحو استقلاله جماعة جديرة بالفناء .

الا أن الوجودية التى تؤمن بوجـود الفرد لينسى واجبـه ولا يذكر غير هواه ليست فى الحق الا عدمية باسمها وفعلها ، وهى من المفارقات والاغاليط بالنسبة الى الآحاد والى الانواع والجماعات .

المدرسة الرمزية

والمدرسة الرمزية ـ كالوجودية ـ احدى المذاهب الصالحة التى قد يفسدها من يقولون بها أو يدعون اليها .

فهى صالحة اذا اعتبرنا ان الكلام كله رمز الى المعنى ، وأنه يتفاوت فى الوضوح على حسب تفاوته فى الالفة والجريان على الألسنة والتفاهم عليه بين المتخاطبين ، وقد يكون المعنى من نوادر الذهن فلا يكون له رمز شائع بين جميع المتخاطبين ، ويستلزم التعبير عنه أن يبتدع له صاحبه رمزا من عنده ، قد يكون من قبيل المجاز والكناية كما يكو نمن قبيل الخطاب الصريح .

والكلام عن المدرسة الرمزية فى المقال التالى يرمى الىالفصل بين هذه الحدود ، ليلحق بمذاهب البناء أومذاهب الهدم ماهو أدنى اليها من أساليب هذه الرموز .

(١) حب الأزياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوروبية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد فى أرجاء الغرب كله ، تصدر الأزياء والآداب والعرف المتبع فى مجالس الطبقات العليا ، وكان لها اشأن ـ كل الشأن ـ يومئذ فى جميع البلدان . فلا تنقضى فترة يسيرة من الزمن دون أن يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزى جديد .. ولم يكن لهم بذ من طوافة يتحدثون بها فى عالم

الأدب والفن كما يتنافسون بالطرائف فى عالم الشـــارات والأزياء • فلما بدأت نهضة الأحياء الحديثة باستحياء الاساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عليهـــا العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديد • فتوالت الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسية الى المدرسة الرمزية ، الى هذه المدارس التى تسمى بالمستقبلة تارة وبمـــا وراء الواقعية تارة أخرى ، ولا تستقر طويلا على حال •

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الأزياء • وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء والآراء ، وانما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع فى السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لأزمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه •

فلا تجد فى غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الأدبية المتلاحقة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعـــد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة •

المدرسة الرمزية

وفى فرنسا نفسها لاتجد هذه المدارس فى القمم العالية أو الأعلام البارزة من أفذاذ الأدب المعدودين ، وانما تجدها فى بيئات الأوساط وأشباه الأوساط الذين يخضـــعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع •

أما أعلام الأدب الفرنسى من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، واذا بدت على أحدهم مسحة من هذه الصبغة أو تلك فهى مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين الذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الأزياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية او لون البساطة ولون التنميق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الأسماء ٠

(٢) ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة فى هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على السنة الفلاسفة والشعراء ٠

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المزوقة التي يوشك أن تتعدد بتعدد الآحاد ٠ فأسلوب هوجو مجازى ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنهـا فى موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ، وأسلوب لامرتين مجازى ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا فى عالم مسحور تتهامس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصداء ٠

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن

شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما الى الاسلوب المدرسي البسيط ـ أسلوب اللاتين واليونان ـ ممزوجا يلون الدراسات العلمية التى اشتغل بها كل عقل مثقف فى عهد المدرسة البرناسية على التخصيص ٠

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة ، لان أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن فى اليونان القديمة فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليونانى القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصرى على نمط لم يعرفه قدماء اليونان ٠

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أى الكلمة فى موضعها الذى لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير احكام التعبير وحسن الأداء ٠

وافرط البرناسيون كما يفرط الدعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الآخر ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان افراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين ٠

(٣) مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة فى تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الإنسان ٠

فالحالم مثلا يعبر فى منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا فى صورة وحش أو مارد مرهوب ·

والكاتب الذى لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز الى المعانى بالشخوص والرسوم ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لأنها نوع من التصوير الذى يساعد على اختصار التعبير ·

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والألغاز ، لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز فى التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح ·

والنساك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعانى الغامضة التى تجيش بها نفوسهم فى حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول · فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة ايضاح ·

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للألفاظ الشائعة معانى غير معانيها المتفق عليها فى اللغة المتداولة ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه ·

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة كرمز الرياضيين والكيميين بالخطوط والنقط الى الأفلاك أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكناية ، وهي حالة الاضطرار والعجز عن الافصاح ، فلم يرمزالانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج الى مدرسة تنبه الأذهان اليه . فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ، والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثياب الأحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ، لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك أنه لا حاجة الى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الافراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا

أحيانا بمعانى لا تترجم عنهـا الألفاظ ولا غنى فيهـا عن الاشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل . والحجـاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هـذا التذكير فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية فى الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلى فى العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الأطراف الى الأطراف .

فالعالم الأوربى قد تنقل فى ثلاثة أطوار عقلية منـذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل فى تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ فى الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان . وطور ثارت فيه البديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التى نسيها فى شططه وغلوائه ، وهى أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه فى تفسـير العـالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففى الطـور الأول كان السلطان للكهنة ورجال الـدين ، وكانت النصوص التى يساء فهمها ويساء العمل بها هى مرجع المراجع كلها فى العلم والحكمة والفنون والآداب .

وفى الطور الثانى تفرد العقل بتفسـير كل شىء وزعم أن العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقـوق وجميع الأسرار .

وفى الطور الثالث صنع «رد الفعل» صنيعه المعهود فى أمثال هذه الأطوار ، فثار المفكرون أنفسهم على العقلية Rationalism كما ثار الفنانون على الواقعية «Realism» وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذى يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل ·

فى هذه الفترة ظهر الرمزيون فى الآداب الفرنسية وكان لهم حق فى الظهور ·

بل ظهروا « متأخرين » عن رواد هـــذا المذهب فى الآداب الأوربية الأخرى ، وفى عالم الفنون التى لها تأثير بين عـــلى الآداب ·

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوى بين أرجاء لقارة الأوربية قبل أن تتحـول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الى لغة الأغـوار والكنايات . وكان كولردج وبرواننج وسوينبرن وتنيسون من أعـلام الشـعر الانجليزى يتناولون المعانى الغامضة تارة بالرمـــز والكناية وتارة بالكلمات التى تماثلها فى الغموض · ويكفى أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم فى روســـو وفولتير ، وتأثير بيرون فى لامرتين ، ليـذكر أن المدرسة الرمزية فى الآداب الفرنسية لم تكن فريدة بين الاداب الأوربية حين ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائل القرن العشرين ·

لكنها ظهرت سائغة مدعوة الى الظهور بدعوة التطـــور فى التفكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من

الثبات على الأساس الصحيح • وصدقت عليها الفكاهة التى تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا أنه كان يغنى بدرهم ويسكت بدرهمين •

فان المدرسة الرمزية التى وجب ظهورها مرة وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار decademts ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا الى كل وضيع خليع ، وأن يعتبروا التعمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير • فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغمض منهما على الأوضح فى غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل فى اللفظ وأقرب الى البديهة وأثبت فى الافهام •

وما هو الا أن تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعى الباطن » و « اللاوعى » المكنون فى أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة الى رمزية أبعد منها فى التطرف والجموح • فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز والالغاز بالغاز وراجت هذه البدعة الجديدة فى عالم التصوير ، لأن رواجها فى عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الأغنياء •

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعى الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعى الباطن وما هو الوعى الظاهر على السواء • فان الوعى الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة فى كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صووروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها انها تلغى العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين ـ حاملى القلم أو حاملى الريشة ـ بالتخمين والتنجيم عن الوعى الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعدون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه لا بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز •

فالرمزية فى حدودها المعقولة ـ ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات وأطيافا ـ تعيش فى الظلام ولا تعيش فى الضياء ، وهى ضرورية ما شعر الانسان بضرورتها فى تمثيل الدقائق والأسرار ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق •

وهى على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية • وقد عرف الناس

« الاستعارة » فى جميع اللغات فلم تكن استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات الا حين أصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم ٠

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غـــرو العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسى والشـــعر الأوربى عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين ٠

المصير

تظهر هذه المجموعة من الأحاديث والفصول فى وقت من الأوقات الحاسمة فى تطور المذاهب الهدامة • لأنها تنتهى الآن الى مصيرها الأخير من ناحيته الأدبية ، ويبدو من بوادر كثيرة انها منتهية لا محالة الى مصير كهذا المصير الأخير من ناحيتها الاجتماعية •

وكل ما ثبت من حق المذاهب الهدامة فى الظهور من الناحية الاجتماعية أنها ظهرت فى بلاد تقوضت نظمها العتيقة وتعذر بقاؤها لعجزها عن مواجهة الزمن ومطالبه ، فظهرت المذاهب الهدامة لأن النظم التى سبقتها لم يكن لها حق البقاء ، ولم تظهر لأنها هى ذات حق فى البقاء ، ولم تبق بعد ذلك عاما واحدا الا بجهد جهيد فى الترقيع والتعديل ، حتى أصبحت اليوم وليس فيها من قواعدها التى تدعى أنها قامت عليها غير العناوين •

فهم يعترفون اليوم فى بلاد تلك المذاهب بالملكية الفردية ويفتحون الباب واسعا للتفاوت بين الأجور وأنماط المعيشة ، ويسمحون بتثمين الحاجيات على حسب العرض والطلب ، ويعرضون الكماليات التى تباع بالألوف ولايطمع فى اقتنائها أجير من غامة الصناع ، ومن رأى رؤساءهم فى المحافل الدولية مرآهم أفخر بزة وأعظم ترفا من أقرانهم الوزراء والرؤساء فى بلاد رأس المال •

وقد اعترفوا بالوطنية التى كانوا يحسبونها خدعة من خدع الطبقات المستغلة ، وتغاضوا أخيرا جدا عن المعابد والشعائر

الدينية وبالغوا في تحيتها حيث نزلوا من بلاد الشعوب المتدينة ولا يستطيع من يرقب أحوالهم فى بلادهم أن يزعم أنهم يتقدمون فى تطبيق الماركسية سنة بعد سنة ، بل يعتقد أنهم يرجعون بعد أربعين سنة عن مبدأ أو عن دعوى بعد دعوى ، فلا تنقضى أربعون سنة أخرى الا وقد أصبحوا مع سائر الأمم على شقة متساوية بينهم وبين تلك الماركسية .

أما مذاهب الهدم التى شاعت فى عالم الأدب والثقافة فلا حياة لها فى مواطنها .

ماتت الرمزية فى الأدب الفرنسى ، وماتت قبل ذلك فى الأدب الأمريكى الذى تظهر فيه أحيانا طائفة من الآراء على سبيل المحاكاة للمذاهب الأوربية ، ولكنها محدودة قليلة الأتباع .

ونحن لا نحسب جورج أورويل Orwell زعيم الرمزيين الأمريكيين واحدا من أدباء هذه المدرسة . لأن الأسلوب الرمزى أسلوب تعبير وليس بأسلوب تشخيص أو خلق للشخوص والأبطال . وقد اختار أورويل فى بعض قصصه أن يجعل شخوصها من الحيوانات العجماء ، ولكنه ألقى الكلام على ألسنتها صريحا مستقيما كما يتكلم به الحيوان الناطق ، وليس هذا من الرمزية « التعبيرية » فى شىء .

ولحقت الوجودية المريضة بالرمزية المتداعية الى هذا المصير، فهى اليوم « أباحية » سافرة لا فرق بين من يتعاطونها وبين

سائر الاباحيين فى كل زمن ، وسقط عنها ذلك البرقع الذى كانت تتراءى من خلفه بوجه جديد ٠

ومنذ سنتين نسمع من جانب الأدباء الروسيين ثورة على أدب « الصناعة » المصطنع الذى درجوا عليه كرها بتوجيه الرقابة وتحت الحظر من العقاب والمصادرة كلما بدرت من الأدباء المنكودين بادرة استقلال أو مخالفة فى التطبيق والتنفيذ وكتبت الشاعرة أولجا برجولتز تقول انها كانت تنشد بعض القصائد فى جمع من « الصعاليك » فصاح بها صائح منهم : أسمعينا شيئا من الغزل ٠٠ شيئا من الغزل الانسانى لا من الغزل فى المكنات والجرارات ٠

قالت فى حملتها التى شنتها على الأدب المصطنع على صفحات الجازيتة الأدبية : « ان أهم شيء فى جوهر الأدب ناقص فى أدبنا وهو عنصر الانسانية أو عنصر الكائن الآدمى ٠ ولست أعنى أن الكائنات الآدمية مهملة فى أدبنا كل الاهمال ، فالواقع اننا نرى هناك نماذج شتى من السواقين والوقادين والبستانيين يوصفون أحيانا وصفا بارعا ولكنهم موصوفون أبدا من الخارج ولا يزال أهم الأشياء ناقصا فى اشعارنا ، وذلك هو البطل الغنائى العاطفى ذو العلاقة الفردية بالدنيا وبالطبيعة » ٠

وقد استجاب لها فى حملتها شاعران نابهان وهما فردوسكى وقسطنطين بستوفسكى ومعهما اتحاد النقاد ، فأطبقوا جميعا على التذمر فى المسرحيات « الملقنة والآداب الموحاة »

واجترأت الشاعرة فيرا أنبار على التهكم من وصايا المربين

الفنيين الذين يدعون لأنفسهم الخبرة بتدريب الناشئة من الطفولة على « الاندماج » فى الحضارة العصرية ، فقالت : « انهم يزعمون ان أغانى الأطفال توضع في الأمم البرجوازية لينام عليها الطفل ولكنها فى روسيا توضع لتوقظه وتقلق منامه » .

وكتب كبيرهم أهرنبورج يقول : « ان الكاتب المؤلف ليس بالآلة الميكانيكية ، وانه لا يؤلف كتابه لأنه يعرف صناعة الكتابة ولا لأنه عضو فى مجمع كتاب السوفييت - يجوز أن يسألوه ما باله لم يؤلف كتب منذ زمن بعيد ، ولكن الكاتب يؤلف لأنه يشعر بضرورة ابلاغ الناس شيئا من ذات نفسه ويلعجه هذا الشعور حتى يتخلص منه .. »

هذه شرارة من النار الكامنة فى الصدور ، تتطاير اليوم كلاما ولم تكن قبل ذلك خامدة أو منطفئة فى قلوب المكتوين بها ، ولكنهم كانوا يعبرون عنها بما كان فى وسعهم من ضروب التعبير الفاجع الأليم .

كانوا يعبرون عنها بالانتحار .

ولهذا مات ثلاثة من أكبر أدبائهم منتحرين قبل سن الخامسة والثلاثين ، وهم مايكوفسكى وايسنين وباجريتسكى ، ومات غيرهم ميتة غامضة تحيط بها الشكوك ، ولم يعرف عن أحد من أدبائهم الموهوبين أنه جاوز الشباب فى سلام .

وليس فى الشرق العربى من يعرف هذه المذاهب على بصيرة بها أو عن إستقلال بالرأى والشعور ، ولكنهم يلقنونها تلقينا

« ببغاويا » أو يتهافتون عليها ولعا بكل غريب مجهول ، وقد تموت المذاهب فى الغرب ولها فى الشرق دعاة يهتفون لهـا ويترنمون بها ويشبهون فى صيحات الاعجاب بها زميلهم الأصم الذى قيل فى نوادر الأضاحيك أنهم أيقظوه بعد انفضاض السامر ، فهب من نومته مصفقا للمطرب المبدع ، بعد سكوته بساعات .

ولعل أناسا من الداعين الى أدب الحياة كما بشر به مايكوفسكى لم يقرأوه ولم يعلموا أنه انتحر هو وزميلاه من أدباء الحياة على هذا الطراز ، ولو أنهم علموا بذلك لما أقحموه فى المقال ليتخذوه قدوة لطلاب الحياة وأدب الحياة !

بل اليقين الذى لا شك فيه أنهم لا يقرأون ما ينتقدونه اذا جاز الشك فى المامهم بنماذج الأدب «المقتدى به» .. على سنة الحياة والأحياء .

فقد ثاروا ، أو أثيروا ، على دعوتنا الأدبية لأنها جمود على القديم واستبقاء لميزان النقد كما غبر عليه المقلدون فى عصور الضعف والانحلال ، وقالوا اننا ندين بوحدة البيت ونتغنى ببيت القصيد ونجهل وحدة القصيدة كلها كأنها « بنية حية » تحل فيها الأبيات محل الجوارح والأعضاء ، وأجمل ما يقال فى الاعتذار لهم انهم مساكين لم يتعلموا القراءة قبل خروجهم من بطون أمهاتهم منذ نيف وأربعين سنة .. والا لقرأوا يومئذ فى عالم الغيب ما كتبناه نقدا لوحدة البيت أو نقدا لبيت القصيد !

وفيما يلى تسجيل لهذه الأعجوبة التى لا نظير لها فى آداب الأمم ولا فى أدب الأمة العربية من قديم الى حديث ، لأن هذه الاعجوبة ظاهرة منقطعة عن الأدب كل الانقطاع ، معزولة عما يقال انه جيد معبر عن الحياة وما يقال انه ردىء جامد على القديم ولولا ان هذه الأعجوبة ظاهرة فريدة فى بابها لما استحقت أن تذكر ولا أن يكون لها موضع فى تاريخ النقد والأدب ، وانما تسجل لانها أول تزييف من نوعه للدعوات الأدبية فى لغة من اللغات ، وقديما كان تزييف الذهب بالنحاس وتزييف الذهب بخليط من المعدن كيف كان . فأما تزييف الذهب بالحصى أو بالتراب فمن أعاجيب الزمن التى لا تقع فى حساب . وهل قامت قط « دعوة » أدبية تنكر ما لم تقرأه وتنتقد ما لم تقرأه وتبلغ من الغفلة أن تدارى ما وراءها بمثل هذا الغشاء ، ولا غشاء !

وهذه القصة بالتمام والكمال كما سجلناها منذ عام فى هذا المقال .

« شىء من هـذا ، بل أغرب من هـذا قيل عن كاتب هـذه السطور وهو أننى جامد على مذهب الاقدمين فى نقد الشعر والادب ، وأننى لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية فى الكتابة ، وخير من الاستطراد فى الحكاية عن هؤلاء القائلين أن ننقل هنا كلامهم كما قالوه .. قالوا أفادهم الله :

« نجد هذا فى الحكم النقدى وفى التعبير الادبى نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بينما من

الشعر أبلغ ما قالته العرب ، وبينما آخر أهجى ما قالته العرب، والى غير ذلك من أفعال التفضيل ، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المنفرد لما فيه من أسلوب وائق ومعنى شائق .. فالعقاد مثلا يترنم بهذا البيت :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

فلا نلبث أن نقرر أنه يساوى عنده الف قصيدة .. لماذا لأن العقاد مثله فى ذلك مثل بقية أدبائنا القدامى ، لا يبصر بالظاهرة الادبية فى الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الادبى وانما فى البيت ، فى المعنى ، فى النادرة اللطيفة ، فى العبارة المفردة » .

أعلمت أيها القارىء اذن ماهو مذهب العقاد .. ؟ مذهبه فى الادب انه هو ذلك الخلط الذى قضى حياته ينحى عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته .

من سنة ١٩٠٩

ان قراءنا كادوا يتهموننا باللت والعجن بل بالافراط فى اللت والعجن ، لكثرة ما كتبناه فى هذا المعنى منذ نيف وأربعين سنة .

منذ حملنا القلم فى الصحافة ونحن نكتب ونعيد ان القصيدة بنية كاملة وأن الاعجاب ببيت القصيد جهل بالشعر والادب وميزان فى النقد يجب أن نحطمه ونعفى عليه ..

وفى سنة ١٩٠٩ نشر حافظ ابراهيم قصيدته التى يقول فى مطلعها :

لقد نصل الدجى فمتى تنام　　أهم ذاد نومك أم هيام

فكتبنا فى صحيفة الدستور ما خلاصته انه أخذ قطعة من الحرير وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان ، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ؛ ولكنها اذا جمعتْ على كساء واحد فتلك هى « مرقعية الدراويش » .

وفى سنة ١٩٢١ أصدرنا كتابا مستقلا لنقد الشعر الذى لا تلاحظ فيه بنية القصيدة ، وقلنا فى الصفحة السابعة والاربعين من ذلك الكتاب ، كتاب الديوان :

« .. ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها ، فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد» كأنما - الابيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منهما بقيمها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها»

وقلنا قبل ذلك أن « القصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها » .

وختمنا هذا البحث قائلين : « اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب

الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد ان يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر، فتكون كما اسلفنا بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة»

الى سنة ١٩٢٨

وكتبنا فى البلاغ سنة ١٩٢٨ جوابا على سؤال من الاستاذ عبده حسن الزيات عن الفُرق بين الشعر العربى القديم والشعر الانجليزى على عمومه فقلنا بعد شرح طويل :

« .. ومن هنا كانت وحدة الشعر عندنا البيت وكانت وحدته عندهم القصيدة .. فالابيات العربية طفرة بعد طفرة والابيات الانجليزية موجة تدخل فى موجة لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض » .

وطبعت هذه المقـــالة مع ثمانى مقالات من قبيلها حتى الآن ثلاث طبعات .

الى سنة ١٩٣٠

وفى سنة ١٩٣٠ الفنا كتابا عن أبن الرومى خصيصالشرح الاسباب التى تدعونا الى الاعجاب به وأولها انه أقرب الشعراء الاقدمين الى المذهب الذى نختاره وأن عصره أول العصور التى فطنت لتجديد الشعر على هذا الاسلوب .

واستشهدنا فى الصفحة السادسة والاربعين بكلام الحاتمى حيث يقول :

« مثل القصيدة مثل الانسان فى اتصال بعض اعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الاخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه .. »

ثم استقصينا الشواهد من قصائد ابن الرومى وعقبنا عليها فى الصفحة ال (٣١٦) فقلنا :

« ان العلامات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتا متفرقة يضمها سمط واحد قل ان يتوالى فيه النسق تواليا يستعصى على التقديم والتاخير والتبديل والتحرير فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة كلا واحدا لا يتم الا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » .

الى سنة ١٩٤٧

وفى سنة ١٩٤٧ كتبنا فى مجلة الكتاب خلاصة شروط الشعر الحسن فعددنا فى أولها أن الشعر قيمة انسانية وليس بقيمة لسانية ، ثم قلنا : « أن القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد . فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الابيات فيه ولا تحس منه تغييرا فى قصد

الشاعر ومعناه » .

وهذه المزية خاصة هي المزية التى شرحناها وكررناها وعدنا اليها خلال هذه السنوات في مقالات متفرقة ، وتداولها القراء في كتب متوالية أعيد طبعها ثلاث مرات وأربع مرات . ومنها كتاب اعيد طبعه وبعد أسبوع واحد وهو كتاب الديوان، ولم يسبق لكتاب عربى حديث مثل هذا الذيوع والانتشار .

الأدب للمجتمع قبل ربع قرن :

وقبل ربع قرن — أى قبل أن يعرف الادعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع — كنا نكتب فنقول ان آفة الادب المصرى انه يعيش بمعزل عن الامة ، ومن ذلك ما كتبناه بالبلاغ في سنة ١٩٢٧ فقلنا : « ان العزلة بين الشعب والحكومة والفوارق الدائمة بين الحياة القومية والحياة الرسمية هى علة الجدب الغريب الذى يلاحظ على آداب مصر الرسمية اى الاداب التى تجرى على تقاليد الحاكمين والرواة فى العصرين القديم والحديث » .

كتبنا هذا ورددناه ولا نزال نردده ونعنى به حين نذكر الشعب أنه مجموعة من النفوس والضمائر والاذواق والاخلاق وليس كما يريده المادبون الحيوانيون مجموعة من البطون والجلود وكفى » .

وبعد تسجيل هذه الاعجوبة نستطيع أن نسجل معها بحمدالله ان أدب مصر برىء من لوثة المذاهب الدخيلة ، لان النقد الذى يستوحى تلك المذاهب لم يصدر قط من وحى بديهتها ولم يعتمد قط على سند صحيح فى موازين التقدير على نوعيه ، من تقدير استحسان واقتداء أو تقدير استهجان وتفنيد .

ولن يضير الادب المصرى فى لبابه أن يلصق به أناس يستوحون المذاهب الدخيلة ولعا بالغريب أو مجاراة للاغراء والترغيب ، ونرجو ألا يضيره الادب المصطنع عند أصحاب جرثومته الكبرى أو أصحاب مذاهبه الهدامة ، لانها تنهدم على قواعدها فى صميم بلادها . وما تهدم منها ركن قائم الا كان فى انهدامه بشير بالعمار والسلام .

المحتويات

صحيفة

دار القاهرة للطباعة
٢٦ شارع منصور ـ القاهرة
تليفون ٣٠٨٠١ ـ ٣٠٨٢٤

الثمن ٦ قروش